

حضرة هود

فصول في التاريخ والثقافة والثروة

كتبها

العلامة عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف
العلامة محمد بن عقيل
الأستاذ علي أحمد باكثير
الأستاذ صلاح البكري
الأستاذ طه بن أبي بكر السقاف
الأستاذ أحمد عوض باوزير
الأستاذ علي عبود العلوي
الأستاذ أحمد طه السنوسي
الأستاذ عبد الله حسن بلفقيه
الأستاذ علوي عبد الله طاهر

الدكتور د. ب. سارجنت

رفع وتصوير

مختار محمد الضبيبي

تابعونا على ↓

صفحة المكتبة التاريخية اليمنية

دع مادنها وقدم لها

د. محمد ابو بكر حميد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إفراء

إلى الأجيال المتعاقبة من أجداد المهاجرين الحضارم في كل

مكان ليعرفوا شينا عن الوطن الذي تعود جذورهم إليه

والى أبناء جزيرة العرب لأن حضرموت جزء من جزيرتهم عرفوا أهلها

ولم يعرفوها

والى كل عربي، ومسلم متعاش لمعرفة المزيد عن أوطانه

الضاربة الجذور في التاريخ والأصالة والعراقة

أقدم هذا الكتاب

محمد أبو بكر حميد

① محمد أبو بكر حميد ، ١٤٢٠هـ

مدرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حميد ، محمد أبو بكر

حضر موت : فصول في التاريخ والثقافة والثروة . - الرياض

١٩٠ ص ، ٢٤ سم

ردمك : ٢-٢٣٥-٣٦-٩٩٦٠

١- حضر موت - تاريخ

١- العنوان

٢٠/١٩٠٦

ديوي ٩٥٣.٣

رقم الإيداع : ٢٠/١٩٠٦

ردمك : ٢-٢٣٥-٣٦-٩٩٦٠

مقدمة

لم يجد تاريخ اليمن وتراثه في العلوم والفنون والآداب- على كثر ما كتب عنه- الاهتمام الذي يستحقه، وإن كانت حضارته القديمة وتاريخها قبل الإسلام قد استقطب اهتمام المؤرخين والمستشرقين، ومع ذلك فلا يزال الكثير مما كتب عن اليمن باللغات الأجنبية بحاجة إلى ترجمة للعربية، ولا تزال مراحل من تاريخها وقطع من آثارها بحاجة إلى مزيد من الدراسة والكشف والتدوين والمحافظة والعناية.

ولم تأخذ حضرموت حقها من ذلك الحظ القليل الذي حظى به تاريخ اليمن. وربما كان عدم خضوعها سياسياً لليمن خلال أحقاب التاريخ الماضية قد حدا بالمؤرخين والدارسين لتاريخ اليمن إلى استثنائها من كتاباتهم، فحُرمت حضرموت من التاريخ لها في معظم الدراسات التي تؤرخ لليمن قديماً وحديثاً.

وهكذا ظل ذكر حضرموت مستقلاً في كتب التاريخ القديم ومعظم التاريخ الحديث. أما تاريخها وأدبها ونتاج علمائها فلا يزال مجهولاً حتى للباحثين والكتّاب اليمنيين أنفسهم، وعلى سبيل المثال لا الحصر عندما كتب الأديب والشاعر والسياسي اليمني المخضرم الأستاذ أحمد محمد الشامي كتابه القيم «قصة الأدب في اليمن» لم يتطرق للأدب في حضرموت. واعتذر عن ذلك بأن في حضرموت من يستطيع أن يقوم بذلك على أكمل وجه. والحقيقة أنه لم يكن بين يديه - وهو ابن اليمن

شكر وتقدير

تتوجه جمعية أصدقاء علي أحمد باكثير بالقاهرة بخالص الشكر والتقدير لأولئك الرجال الأفاضل من أبناء حضرموت الذين ساهموا في دعم الدور الثقافي والأدبي والخبري لهذه الجمعية التي يمثل هذا الكتاب أحد أنشطتها الثقافية في إحياء التراث الحضرمي وخدمته دراسة وتحقيقاً وتأليفاً.

إبراهيم الأزهرى

رئيس جمعية أصدقاء باكثير

وعلى بعد أميال من حضر موت - المصادر والمراجع التي تُعينه على ذلك . وكذلك لم يجد الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المقالح، والشاعر عبدالله البردوني وغيرهم من الأدباء والباحثين اليمنيين فيما كتبه في مؤلفاتهم عن الأدب والثقافة في اليمن، المصادر والمراجع التي تعينهم على كتابته عن حضر موت فما بالنأ بالأدباء والمؤرخين في الدول العربية الأخرى الذين لا يعرفون عن حضر موت إلا ما درسوه في مادة النحو بان حضر موت «مركب مزجي» ممنوع من الصرف.

ولاشك أن العزلة السياسيّة التي فرضها الاستعمار على حكومات حضر موت المتعاقبة حتى إستقلال الجنوب سنة ١٩٦٧م كان لها دوراً في ذلك إلى جانب تقلص دور الاهتمام بالعلم والثقافة لدى أكثر أحفاد الحضارم وإنشغالهم بالتجارة في وطنهم ومهاجرهم، فظل الكتاب المطبوع عملة نادرة في حضر موت وظل الناس يتداولون المخطوطات الى عهد قريب، وظل أدبها وتاريخها يُكتب الى اليوم فلا يجد من يطبعه، والذي طُبِع منه يُعد نسبة قليلة جداً قياساً بالذي لا يزال مخطوطاً، بل أن الذي طبع فعلاً كان لادباء ومؤرخين أتبع لهم فرص الخروج من قمم الوطن المغلق. فعلى سبيل المثال ماكان لتاريخ حضر موت لصالح بن علي الخامد ودواوينه الشعريه أن تطبع، لولا أن الرجل كان يتردد على سنغافورا ومصر، وما كان على أحمد باكثير لينال ذلك الذبوع والصيت في كل مكان لو لم يهاجر نهائياً إلى مصر.

ومن هنا نجد أن من طُبعت لهم كتبهم من الحضارم كانوا من الذين هاجروا الى إندونيسيا وسنغافورا والهند ومصر، أو من الذين لهم صلات بتلك المهاجر، ونستطيع أن نقول أن أغلب الأدب الحضرمي المطبوع طُبِع في إندونيسيا وسنغافورا وحيدرآباد، وظل إنتشاره محصوراً بين المهاجرين هناك لم يصل منه إلى حضر موت إلا القليل، وحتى هذا الأدب والتاريخ الحضرمي الذي كُتِب في المهجر مهدد الآن بالضياع على أيدي الأحفاد الذين لم يعد أكثرهم يفهم اللغة العربية، وانقطعت صلاتهم بوطنهم الأصلي.

فلا عجب إذن أن يجهل أحفاد الحضارم تاريخ وطنهم، ولا عجب أن يجهل مؤرخو الأدب العربي الدور الحضاري الذي لعبه الحضارم في الماضي حيث كانوا رواد أكبر نهضة فكرية وأدبية وإسلامية في الشرق الأقصى، ففي اندونيسيا وحدها أصدروا أكثر من ١٨ صحيفة ومجلة باللغة العربية، وكانت «جريدة حضر موت» التي أصدرها في إندونيسيا سنة ١٩٢٣ السيد محمد بن هاشم ورأس تحريرها السيد عيروس المشهور تعد من كبريات الصحف في العالم الإسلامي. بل أن مجلات ذلك العصر في مصر مثل «الفتح» و«المنار» كانت تروي عنها وتشيد بها.

وتشكل مؤلفات الحضارم في تلك المهاجر أغلب ما صدر من كتب مطبوعه في الدين والأدب والتاريخ، غير أنه لم يعد يوجد منها الآن إلا النزر اليسير في المكتبات الخاصة لورثة الأدباء والكتاب الحضارم هناك، وفي بعض مكتبات اندونيسيا وحيد آباد بالهند وبعض دول شرق أفريقيا،

وهي حقيقة أشار إليها أمير البيان شكيب ارسلان ودلل عليها في كتابه الشهير «حاضر العالم الاسلامي» الذي يضم صفحات كثيرة عن دور الحضارم في نشر الإسلام وخدمة العروبة.

أما نتاج قرائح الأدباء والشعراء والمؤرخين في داخل حضر موت فإن المخطوط منها وهو الأكثر لا يزال يثني في خزائن أحفادهم وورثتهم الذين يجهل أكثرهم أهمية نشر هذا التراث وضرورة خروجه إلى النور، ويحتاج بعض هؤلاء إلى التشجيع المادي والأدبي للافراج عن تلك المخطوطات الحبيسة قبل أن تأتي عليها الأرضة، خاصة وانها قد نجت من أيدي الاخطبوط الماركسي الذي جثم على صدر البلاد أكثر من ربع قرن لم يستطيع أن يطبع خلاله إلا الكتب دوات التوجهات الحمراء، وأهمل تاريخ حضر موت وعدن وصنعاء، وأدار ظهره للإسلام والعروبة وولى وجهه شطر موسكو ودرل المعسكر الاشتراكي يدرس تاريخ الشيوعي فيها ويتخذ من قادتها أوثاناً يعبدها من دون الله.

واليوم وقد تحرر ذلك الوطن الأسير للسكين من ربة الشيوعي وعادت إليه شخصيته العربية الاسلاميه وعاد الناس يلتفتون بحب وشغف لماضيهم ويتطلعون بعزيمة لصناعة مستقبل أفضل، وقد رأوا رأي العين أن ماسعت الماركسيه إلى إحدائه لم يترك أثراً في حياتهم إلا ما تركه الكتابة على الماء.

إن ما كُتِبَ عن حضر موت في الصحف والمجلات بمختلف اللغات - ناهيك عن الكتب - يُعد بالعشرات وربما بألوف. ورسده وتصنيفه

وترجمته - إن كان بلغات اجنبية - يحتاج إلى جهود فريق من الباحثين. ويحتاج إلى همم علميه وإمكانات ماديه كبيرة. وأبناء حضر موت المنتشرون في أصقاع الدنيا لا يعوزهم المال ولا ينقصهم العلم. وإذا كان الحضارم في القديم قد أمسكوا بناصية المال وسبقهم الغير إلى العلم فإن الأبناء وأحفادهم اليوم قد أدركوا ما فات الآباء من العلم وسابقوا فيه غيرهم من الناس.

وسمعة الحضارم بالأمانة في التجارة والصدق في المعاملة والحزم في التربية والصبر على الأذى تسبقهم إلى كل مكان يرحلون إليه، وتمتحنهم مكانة متميزة في نفوس الشعوب التي يحلون بين ظهرانيها. . سمعة عميقة ضربت جذورها في أعماق البلاد التي استوطنوها في جزيرة العرب وفي الشرق الأقصى والشرق الأدنى وشرق افريقيا، وقد أسس هذه السمعة رجال أجلاء اشتغلوا بالعلم والتجارة، وترك كل من العلماء والتجار الحضارم آثاراً مخطوطة بحاجة إلى طبع ومؤلفات منسيه بحاجة إلى من يحفظها من الضياع وتاريخاً في ذاكرة الشعوب إذا لم يُسجل ويؤرخ له فسُيَسَى.

وهذا التاريخ المُشرف الذي سجله الحضارم لا يخصهم وحدهم لأنه صفحة مشرقة من تاريخ جنوب الجزيرة العربية وصورة مُشرفة لعرب الجزيرة أجمعين. ويظل هذا كله من قبل ومن بعد جزء من تاريخ الاسلام ومآثره في العصر الحديث.

فإذا لم يلتفت أحفاد ذلك الجيل العصامي العظيم من أهل حضرموت إلى تسجيل تاريخهم والإهتمام بترائهم وجمعه وطبعه فإنه سيكون تقصير عظيم منهم في حق أنفسهم وحق دينهم وحق عروبتهم، وسيقوم به غيرهم من أبناء اليمن والجزيرة العربية بإعتباره واجباً إسلامياً قبل أن يكون أي شيء آخر.

وبعد فإنه إذا ما تحرك المثقفون والعلماء ورجال الاعمال الحضارم لتسجيل تاريخهم وحفظ تراثهم، فيجب الا يفهم البعض أن هذا السلوك حركة عصبية أو عنصرية أو شعوبية منهم، بل يجب أن يفهم هذا السلوك بأنه بداية وعي جديد دب في هذا الجيل من أحفاد الحضارم الذين بدأوا يدركون به مسؤوليتهم التاريخية نحو أجدادهم وأبائهم ووطنهم الأصلي . . . إنها حقاً مسؤولية جسيمة . . . مسؤولية إذا كانت على غيرهم من أبناء جنوب الجزيرة (اليمن) وأبناء جزيرة العرب كلها فرض كفايه فإنها عليهم فرض عين .

وما صدور هذا الكتاب الذي جمعنا بين دفتيه مادةً مختارة مما كُتب عن حضرموت تاريخاً وثقافةً وثروة في مجلات عربية متفرقة إلا خطوة لتشجيع البحث والتنقيب في التراث البكر لهذه المنطقة، وكان منهجي في ترتيب مواد هذا الكتاب يقوم على أهمية الموضوع كما أراه لا على مكانة كاتبه . وقد قمت بشرح ما يلزم شرحه في الهوامش^(١)، وترجمت

(١) لتمييز الهوامش التي أضفتها عن غيرها فإن الهوامش المضافة مزيلة برمز اسم المحرر.

لكتاب هذه الموضوعات الذين لا يُعرف أغلبهم خارج الدوائر المهتمة بتاريخ حضرموت وأدبها، ولقيت مشقة في ذلك إذ لا توجد كتب تُعرف بهذه الاعلام الحضرمية المجهولة ولا يكاد بعض أولادهم وأحفادهم يعرفون عنهم شيئاً، فكان ما دونته عنهم للاسف هو أقصى ما بلغ علمي به عنهم، فلا عجب إذن - والحال هذه - أن لا نجد حتى تواريخ ميلاد ووفاة بعض هؤلاء الاعلام .

وفي الختام أتوجه بالشكر الجزيل والتقدير العميق لهؤلاء الرجال من أبناء وأحفاد أهل حضرموت الذين لمست فيهم الاحساس بالمسؤولية التاريخية نحو ذلك الجزء المهم من جزيرة العرب وتشجيع الاهتمام بجمع وطبع ونشر تراث هذا الوطن الاسلامي العريق . . . والله الموفق . . .

محمد أبو بكر حميد

ص. ب. ٨٥٨ الرياض ١١٤٢١

المملكة العربية السعودية

مصادر التاريخ الحضرمي^(١)

للأستاذ أحمد عوض باوزير^(٢)

هناك حقيقة تاريخية ثابتة ينبغي مراجعتها، قبل البدء في الحديث عن «مصادر التاريخ الحضرمي»، ومن المؤرخين المحدثين الذين فطنوا إلى أهمية هذه الحقيقة، السيد علوي بن طاهر الحداد، مؤلف كتاب «الشامل في تاريخ حضرموت». فقد ورد في رسالة له أسماها «جني الشماريخ في جواب أسئلة التاريخ» (المخطوط) ما يفيد في تقرير هذه الحقيقة.

وفحوى هذه الحقيقة التاريخية هو أن التاريخ السياسي القديم لحضرموت لا يمكن دراسته منفصلاً عن تاريخ اليمن الكبير، أو عن تاريخ الإسلام في الجزيرة العربية حتى إلى ما بعد نشوء الدولة الكثيرة في أواخر القرن الثاني الهجري. ويقال في تعليل قيام بعض الحكومات القبلية

(١) نشرت بمجلة الرسالة، العدد (٩٨٩) الصادر في ١٦/٦/١٩٥٢م، القاهرة.

(٢) أحمد عوض باوزير كاتب وصحفي ورئيس تحرير صحيفة «الطلیعة» التي كانت تصدر في المكلا حضرموت قبل الاستقلال (١٩٥٩م-١٩٦٧م). وقد بدأ نشاطه الصحفي في عام ١٩٤٨م في عدن كمحرر في صحيفة «الذكري» للشيخ علي محمد باحميش، ثم انتقل للعمل في صحيفة «النهضة» للأستاذ عبدالرحمن عمر محمد جرحوه عام ١٩٤٩م ثم عمل مع الأستاذ محمد علي باشراحيل في صحيفة «الرقیب» عام ١٩٥٧م كمحرر للنادي الثقافي بالمكلا والمدرسة الوسطى بسخيل باوزير. أنشأ أول مطبعة حديثة في حضرموت عام ١٩٦٢م (دار الطلیعة والنشر)، له عدة مؤلفات وأبحاث مطبوعة ومخطوطة، ومن مؤلفاته المطبوعة: (شهداء القصر) و(الشعر الوطني).

و استقلالها أثناء هذه الفترة الزمنية، أن ذلك كان نتيجة لأحوال الضعف المادي والأدبي في حكومات اليمن المتعاقبة، أو في عاصمة الخلافة الإسلامية.

ومما يستفيد في تقرير هذه الحقيقة كذلك انتشار الفرق الدينية في حضرموت، فإن ذلك الانتشار يعني امتداد النفوذ السياسي والإداري إلى هذه الرقعة من الجزيرة العربية. وأظهر هذه الفرق «الأباضية» ثم «القرمطية»، وكان ظهورها أيام اضطراب دول الزياديين في اليمن، في أواخر القرن الرابع الهجري و«الإسماعيلية».

ما هي مصادر التاريخ الحضرمي ؟ :

وإذا كنا قد أثبتنا هذه العلاقة بين تاريخ حضرموت، من جهة، وتاريخ اليمن أو الجزيرة العربية، من جهة ثانية، فيحسن بنا أن نساءل: ما هي مصادر التاريخ الحضرمي إذن؟ وما هي نوع العلاقة في هذه الوحدة السياسية والاقتصادية؟

والجواب على أولهما، أن هناك كثيراً من المصادر التاريخية، بأقلام جمهرة من الحضرميين النابهين. غير أن أهمها قد ضاع، ولم يبق منها غير مقتطفات أو شذرات متفرقة، ومن هذه المصادر «تاريخ بازرعة» و«تاريخ حنبل» وكتاب «الفرج بعد الشدة في إثبات فروع كندة» و«تاريخ الشبلي» و«شنبل» وغيرهم من المؤرخين. وحتى هذه المصادر لا يمكن أن تؤخذ على علاقتها دون الرجوع إلى الأحوال العامة، في تاريخ البلدان المجاورة

التي يتصل تاريخها السياسي اتصالاً وثيقاً بسير الأحوال في البلاد الحضرمية أما عن نوع العلاقة في هذه الوحدة السياسية والاقتصادية بين حضرموت وغيرها من الدويلات في الجزيرة العربية، فذلك يعني تفصيل الحكومات السياسية التي تعاقبت على اليمن منذ صدر الإسلام، إلى وقت انفصال حضرموت نهائياً عن حكومات اليمن في أواخر القرن الحادي عشر، كما نذهب إليه.

ومن العسير جداً على الباحث في تاريخ هذه الحكومات المتعاقبة، أن يهتدي إلى تحديد هذه العلاقة تحديداً شاملاً. فإن المجال لا يزال مفتوحاً للدراسات التاريخية، وهذا النقص يكاد يكون ملحوظاً للمعنيين بدراسة تاريخ الجزيرة العربية؛ ولذلك فإننا عاجزون حتى الآن عن تحديد تلك العلاقة؛ لأن ما لدينا من الباحث العلمية والمراجع التاريخية لا يكفي في تقرير هذه الحقائق تقريراً صافياً ومفيداً.

كيف ضاعت هذه المصادر ؟ :

ويذهب السيد الحداد في رسالته «جني الشماريخ» في تحليل أسباب ضياع تلك المصادر التاريخية - التي أشرنا إليها آنفاً - إلى انتشار البداوة والجهل بين سكان حضرموت؛ لأن انتقال تلك المؤلفات إلى أيدي أولئك نفر من الجهلة، معناه الإهمال والضياع.

وربما كان هناك من يريد أن يسأل: كيف أمكن نبوغ تلك الفئة من المؤرخين وسط تلك الجهالة المتفشية. ولا إخال أن الحداد كان ينتظر بداة

هذا السؤال، فقد أثبت في موضع آخر من رسالته السابقة «أن الذين قدر لهم الإقبال على العلم منهم في تلك الأزمنة إنما نهيأت لهم أسباب خاصة، تيسر لهم معها التفريغ لذلك».

وأنا - وإن كنت أوافق الحداد في بعض ما ذهب إليه في تحليل أسباب ضياع المصادر التاريخية - غير أنني أعتقد أن هناك سبباً أقوى، وهو أن المتأخرين من المتعصبة، قد رأوا في سيرة الأسلاف ما ينكرونه عليهم من المذاهب أو النحل. فعمدوا إلى إخفاء تلك المؤلفات وطمسها في بعض الأحيان. وقد ذهب إلى مثل هذا الرأي بعض ذوي النظر والباحثين.

محاولات في التاريخ الحضرمي :

ظهرت في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، محاولات أولية في تدوين التاريخ الحضرمي القديم، وهي محاولات بدأت ضيقة، ثم أخذت تتسع تدريجياً، فقد ظهر كتاب «الشامل» لمؤلفه السيد علوي الحداد. وكتاب «تاريخ حضر موت السياسي» للأستاذ صلاح البكري، وكتاب «تاريخ الدولة الكثيرية» للسيد محمد بن هاشم، وكنت قد اطلعت على نسخة خطية، بالمكتبة السلطانية بالمكلا، من كتاب «التابوت»^(١) للسيد عبدالرحمن بن عبيدالله.

(١) يقصد به كتاب «بضائع التابوت في نفا من تاريخ حضر موت» لا يزال منطوقاً ويقع في حوالي ٢٠٠٠ صفحة، ينتظر من يكمل تحقيقه ويطبعه ويعد من أهم المصادر في التاريخ والاسباب الحضرمية.

وأستطيع أن أجزم أن هذه المؤلفات - على الرغم من حداثةها - لا تخرج عن سرد الحوادث سرداً عاماً دون تعمق أو تصوير. وقد اعترف ابن هاشم في كتابه «تاريخ الدولة الكثيرية» بهذه الحقيقة، فقال في مقدمة الكتاب: «وبعد، فقد الزمننا على أنفسنا في هذا الكتاب أن نكتب ما عثرنا عليه في كتب التاريخ من أخبار القوم، مجردة من الملاحظات والانتقادات والأخذ والرد والتحليل والتركيب».

ويحاول السيد ابن هاشم أن يبرر هذا المسلك التاريخي بقوله: «ولست أجد لي حقاً في مؤاخذتي أشخاصاً على سلوك سلكوه أناخت على علله وأسبابه السنون، ودفنت مبرراته ومسوغاته طوال القرون».

ونحن لانقر السيد «ابن هاشم» وهو الكاتب الأديب على هذا النحو من التفكير. وسواء أ كانت المبررات التي زعمها صحيحة أم غير صحيحة فإننا كنا نتوقع أن يعمد إلى «المعول» لبش الحقائق وغربلتها، وأن يبرأ من تلك الشفقة والرحمة؛ لأنها لا تجدي في منطق الوقائع التاريخية ولا تفيد كثيراً.

وأود في ختام هذا الحديث القصير أن أشيد بأسلوب «ابن هاشم» في الكتابة، ذلك الأسلوب الأدبي الرصين الذي يطالعه القارئ من حين لآخر، في أكثر من مكان من الكتاب.

هذه فذلكتة عن «مصادر التاريخ الحضرمي» أقدمها في أنسب الأوقات وأصلحها، لعلها تفيد في إنارة السبيل للمعنيين بدراسة التاريخ الحضرمي القديم، وتعين على فهم الحقائق التاريخية الكبرى.

حضر موت^(١)بقلم السيد العلامة محمد بن عقيل^(٢)

أردت أن أستفيد من فرصة وجود العلامة الجليل الأستاذ السيد محمد بن عقيل كبير علماء حضر موت لهذا العهد بين ظهرانينا في العاصمة المصرية. فرجوت أنه يتفضل على مجلة (الزهراء) بصورة صادقة لحضرموت. ذلك الجزء العزيز من الوطن العربي الأكبر فتفضل حفظه الله. بالمقال التالي الذي أنشره مرفوقاً بالشكر لسيادته.

محـب الدين الحـطـيب

لحضر موت - التي ربما جهل حالها كثير من قراء هذه المجلة - عرقٌ كريم في التاريخين القديم والحديث. ولها بعد ذلك شأن لا يستهان به في إخراج جماعة من أساطين الفضل وفرسان الأدب. ولسببها عبقرية تتجلى

(١) نشرتها مجلة الزهراء في عدد صفر ١٣٤٥ هـ، القاهرة.

(٢) السيد محمد بن عقيل: عالم وفقه. اشتهر بولوعه بمسائل الخلافة وتفضيل أصحاب النبي ﷺ آثار معركة جدلية بكتابه "الصائغ الكافية لمن يتولى معاوية" وأثيرت عليه ضجة كبيرة فأمرت الدولة العثمانية بمصادرة الكتاب. غادر حضر موت إلى جاوا سنة ١٢٩٦ هـ وهو دون العشرين، وزار معظم البلدان الشرقية حتى الصين واليابان، ثم تجول في البلدان الأوربية، واختلف على مصر والشام والعراق أكثر من مرة. ومن مؤلفاته: كتاب "ثمرات المطالعة" و"الهداية إلى الحق في الخلافة والوصاية"، وأيضاً "العتب الجعيل على أهل الجرح والتعديل". أسس أول مدرسة عربية في ستغافور باسم "الإقبال" أنفق عليها من ماله الخاص، وعاش حياته داعية إلى نهوض المسلمين بالتربية والتعليم، ولم يجه إلا غلوه في التشيع. توفي في الحديدة منفياً من حضر موت سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م). (م . ب . ح)

أكثر عندما يغادرون بلادهم ويقيمون غرباء في إحدى البلدان النائية. وقد شد الرجال إلى حضر موت للسباحة وطلب العلم رجال عديديون من فضلاء العالم الإسلامي فعادوا وحقائبهم مملأ بالفوائد العلمية، والنكات الأدبية. وفيها يقول أحدهم :

مررت بوادي حضر موت مسلماً فالنبتة بالفضل مبتسماً رحباً
والنبت فيه من جهابذة العلا أفاضل لا يلفون شرقاً ولا غرباً
وحضر موت هي مخلاف من مخاليف اليمن، وتسمى (الأحقاف) أيضاً.

حدودها :

يحدّها من الجهة الشرقية شُعب وادي النبي هود عليه السلام، ومن الجهة الغربية عين با معبد، ويحدّها جنوباً البحر العربي، وشمالاً رمال نجد والربع الخالي، وجُلّ هذه المساحة جبال صخرية جرداء قاحلة خالية من النبات والعيون ما عدا القليل.

مزارعها وعيونها :

يتخلل القطر الحضرمي رمالاً متنقلة غير واسعة، كما أنه يوجد في فجاج الأودية مزارع حسنة إلا أنها أيضاً ليست بذات اتساع يذكر. وكلها الآن عامرة ما عدا جزء صغير منها، ولكن آثار العمران السابق ظاهرة. وكذا مجاري المياه والآبار المعطلة، والسدود المهذومة، والعدد الجم من خرائب القرى المبعثرة هنا وهناك - ما بين معلوم الاسم ومجهوله،

وجاهليّ العمارة وإسلاميها - كل ذلك يشهد على ما كان لذلك القطر قديماً من الحضارة والعمران. وإنما نضب كثير من العيون والآبار لجرف السيول مجاريها سنة بعد سنة إلى أعماق بعيدة انجر بها إلى البحر ما تمد به تلك العيون والآبار من الماء. وبذلك زاد الجفاف، وقلّ العشب، وضعف نتاج ما بقي معموراً من الأرض. على أنه لا يزال اليوم بحضر موت عيون في جوار الساحل وفي بعض الأودية يزرع عليها النخيل والحبوب وغيرها.

صادراتها :

التبغ الحمومي هو أهم الصادرات من تلك الناحية، وتوجد أيضاً فيها أنواع التمر كثيرة والبُرّ والذرة والدخن وحبوب أخرى، وما لا يذكر من الفاكهة والبقول. ويسير من القطن الهندي. ويخرج من غربها وما فوقه عسل كثير لا يضاويه غيره حسناً وحلاوة. وفي جبالها اللبان الشجري والصبر والمر.

حيواناتها :

بها من الحيوانات ما يوجد غالباً باليمن. وقد انقرض أو كاد ينقرض منها كثير من الأوابد البرية والوحوش والطيور التي كانت توجد بها كما تحكيه التواريخ القديمة والحديثة. وهناك يوجد حتى الآن حيوان غريب من ذوات الظلف لا هو بالوعل ولا بالفزال، له قرنان صلبان مستديران أقرب إلى الاستقامة منهما إلى الانحناء، وهو سريع الجري جداً حتى إنه لا يكاد يصاد إلا نادراً، يسكن الجبال وربما انحدر إلى السهول لارتياح الماء والكلأ، يدعوه أهالي حضر موت بالوُصَّيحي، وهو جسور وخطر.

باديتها :

تسكن جبال حضرموت قبائل من صميم العرب : من قضاة ونوح ونهد وكندة وجمير ومدحج وغيرها، وكلها لا يزال بينها ذحول ودما، وثارات، الأمر الذي سبب عدم استقرار حكومة مدة طويلة بتلك البلاد على نظام ثابت، لما تعانيه من شغب باديتها وجذب أرضها، فإذا أقيمت بها حامية كبرى عجز خراج البلاد عن مؤنتها، وإن أقيمت بها حامية قليلة العدد والمعدد لم يحفل بها الأهالي وعادوا إلى سيرتهم الأولى، وهكذا دواليك.

بلاد مهرة :

ويضاف إلى حضرموت عرفاً بلاد مهرة، وهي موطن الإبل المهرة الشهيرة التي يقول فيها أبو الطيب المتنبي الجعفي الكندي :

ويَلْمَأُ حُطَّةً وَيَلْمُرُ تَابِلَهَا
لمثلها خلق المهرة القود

ومهرة بلاد واسعة تتصل بظفار الجبوتي وبعُمان ورمالها. وسكانها نحو المائة والثلاثين ألفاً ينتشرون في البر العربي وفي الجزر الشرقية. ولهم لغة مستقلة ليست بعربية ولكن بها حروف الحلق كما بالعربية، ولكنها حتى الآن لا كتابة لها. ومهرة من العرب بلا ريب، وأنسابهم ثابتة كما في الجمهرة وغيرها، ويضارعتهم في هذا قبيلة القرى في صقع ظفار الجبوتي أيضاً.

سكان حضرموت :

تحتوي حضرموت ضمن حدودها المذكورة آنفاً نحو ثلاثمائة ألف نسمة حضراً وبدواً، ولا يدخل فيهم مهرة، وهم كبادية حضرموت. وينقسم هؤلاء السكان من الوجهة الاجتماعية إلى ثلاث طوائف كبرى :

أولها: السادة العلويون النازلون بها سنة ٣١٧هـ ومن يلحق بهم من بعض قبائل الحضارمة. ومن هذه الطائفة رجالات العلم والفضل والنفوذ، وهم المصلحون بين الناس، والساعون في بناء المدارس والرباطات والمساجد، والقائمون بالتعليم والإرشاد وعقود الأنكحة وقسم الموارث. ويشارك السادة العلويين في هذا من أشرنا اليهم من بيوتات الحضارمة.

ثانيها: الزراع وأرباب الصناعات والعمال وأهل الأسواق ومن ضاهاهم، وهذه الطائفة والتي قبلها تفصلان المنازعات التي تحدث بينها بالمصالحة غالباً، أو بحكم الشرع على مذهب الإمام الشافعي الذي هو مذهب الحضارمة قاطبة.

ثالثها: حملة السلاح من العشائر بدواً وحضراً. وهؤلاء هم العامل الأكبر في كل ما أصاب تلك الاقطار من الخراب والشقاء. وهم وإن يك فيهم رجال ذوو عقل وصلاح ويحبون الخير، إلا أنهم مغلوبون على أمرهم. وجل هذه الطائفة يحارب بعضهم بعضاً، وربما حاربت القبيلة الواحدة قبيلتين فأكثر.

وقد تشق القبيلة الكبيرة إلى قبائل عديدة ضئيلة العدد لكل فخذ منها قسم من البلاد ولها رئيس، ويكون غالباً بينها وبين أخواتها دماء وذحول.

ثم يجمع تلك القبائل رئيس كبير يتولى أمرها فيما بينها وبين القبائل التي تضامها، وليس له سلطة على غير فخذة فيما سوى هذا، بل ربما قاتلتهم وقتلوه. على أن مقاتلتهم هذه لا تمنعهم من صد هجمات الغريب، بل تراهم يتركون قتلاهم وجرحاهم فيما بينهم في المعركة ويهبون جميعاً بداً واحدة لمقاتلة عدوهم المشترك، ثم بعد انتهائهم من أمره يعودون إلى ما كانوا فيه من قبل.

وتفضّ المشاكل والمخاصمات الحادثة بين هذه الطائفة - فيما عدا الموارث والأنكحة - بحسب عادات لهم عرفية، وبواسطة حكام منهم. ولهم قوانين في الحكم وفي استئناف الدعاوى يطول شرحها، وكلها محفوظة غير مكتوبة.

لغة حضر موت :

لغة حضر موت هي العربية، إلا أنّ الدارجة منها قد فسدت كما فسدت لغات غيرها من أقطار جزيرة العرب، ومع ذلك فالفاظ الحضرمي فصيحة ناصعة غالباً لم تنطرق إليها الغتمة التي سادت على النجدي، ولا الغمغمة التي كثرت في منطوق اليمن، ولكل حاضرة بها نغمة، ولكل قبيلة لغية ولهجة. وللحضارم في دارجتهم ألفاظ كثيرة ليس لها وجود في معاجم اللغة، وكلها على موازين الكلمات العربية ينالها ما ينالها من الجمع والتثنية والتصريف، وجلها رباعي وخماسي، ومنها ما يشبه بعض الفاظ الهيروغليفية القديمة. وعلى العموم فلغة حضر موت الدارجة تقرب إلى الفصحى كثيراً بغض النظر عن الإعراب.

المعارف :

ليس للمعارف الآن سطوع بتلك الربوع. فقد أصابها من الانحطاط ثم الموت بموت أهلها ما أصاب غيرها. وقد دبت الحياة منذ سنوات في قلوب بعض سادات تلك البلاد، فهجوا للتعاون على نشر العلم بفتح المدارس. وها قد أينعت مساعيهم بعض الإبتاع، إلا أن الضرورة لا تزال تدعو إلى أضعاف أضعاف الموجود، لاسيما وأن لديهم من الثراء ما يقوم بعض زكاته بأكثر من المطلوب. ومعاهد العلم بحضر موت مقتصرة على تدريس الفقه والنحو وشيء من التفسير والحديث - والبلاد وإن تك لا تخلو من العلماء المتفنتين، وشبان الأدب والشعر - إلا أن نطاق التعليم لا يزال بها دون الواجب بمراحل.

الأمن بها :

علمت أن الحكومة في حضر موت غير مستقلة، وأن البلاد لم تنزل في حروب داخلية وفرقة، لاسيما بعد انجلاء جنود المتوكل على الله صاحب اليمن منذ نحو قرنين. لذلك انعدم الأمن في حاضرتها وأطراف من البادية، وساد النهب والسرقه والغصب، واستبيحت الدماء، ولم تنزل الحالة على هذا إلى الآن. نعم ان السرقه وقطع السبل في الوقت الحاضر أصبحت في قلة محسوسة؛ لنزوح كثير من الطرار والسراق عن البلاد إلى الجهات السحيقة من وراء البحار. أما البوادي المسلوكة للقوافل فالأمن فيها - إلا ما ندر - موجود، ولولاها لهلكت تلك البوادي، إذ جُلُّ طعامها إنما هو من كرى جمالها. ولذلك كان الذهاب والآيب لا يخاف سارقاً ولا

مغيراً، ولو رمى المرء شيئاً من أمتعته على قارعة الطريق وتسركه لاسايح فإنه يجده كما تركه، وكذا لو أن نجاباً يحمل كتباً ونقوداً صادفه عدوله فقتله - بسبب تلك العداوة - فإنه يؤدي أمانة القتل إلى أهلها.

الحكومة بحضرموت وتاريخها :

أقدم حكومة في تاريخ حضرموت الحديث هي : الحكومة الكثيرة وتدعى الآن آل عبدالله، وقد مضى على تأسيسها رَدْح طويل ونفوذها يَبْسُطُ مرةً ويتقلصُ أخرى؛ حتى هبَّ الإمام المتوكل اليمني فنصرها ودمر أعداءها ورد لها ملك حضرموت كله، ولم يشترط إلا إعلان الطاعة له وإقامة الشرع المحمدي والمحافظة عليه .

ولبعض أمرائها - وهو السلطان بدر بن عبدالله بن جعفر بن عبدالله بن علي بن عمر الكثيري المولود سنة ٩٠٢ من الهجرة - شهرة حسنة، وقد طالت أيام حكمه لأنه تولى وهو صغير السن، وكان ممدوحاً من الشعراء. وهو الذي منع التُّرك من الاستيلاء على حضرموت، ثم اعترف لهم بالطاعة، وأرسل إلى القسطنطينية هدايا، منها بعض أسرى من الإفرنج في واقعة الشحر مع البرتغال. وأرسل جيوشه لفك حصار الترك في زيد، وألزم أهل اليمن بطاعة الترك في أيام السلطان سليمان، وكانت وفاته عام ٩٧٧هـ.

وقد كان الملك قبله لآل عبدالله بن راشد بن قحطان المولود بترميم سنة ٥٥٣هـ والمقتول ظلماً بعد تنازله طوعاً عن الملك وزهداً، وبعد تجرده للعبادة سنة ٦١٢هـ.

وآل كثير ينتهي نسبهم إلى قُضاة، وكذا بنو ظنة، وهم ثلاث قبائل: آل تميم بن ظنة، وآل منهال بن ظنة، وآل شرحبيل بن ظنة. ويعرف هؤلاء الآن ببني تميم والمناهيل والشحابلة.

ثم تولى بعد بدر المذكور أنفأ ابنه عبدالله، وكان قد وثب على أبيه وحجر عليه، حتى مات وهو محجور عليه، واستبد بالملك. وبعد موته قام بالملك ابنه جعفر وقتل سنة ٩٩٠هـ. فقام بعده عمه عمر بن بدر وكان ممدوحاً من الشعراء. ولا نرى فائدة في الإطالة هنا بذكر الحوادث وسلسلة من تملك من آل كثير، ومن رغب في شيء من ذلك فعليه بتواريخ حضرموت: كتاريخ شنبل^(١)، وكتانور السافر، وكتاب الجواهر والدرر للشلي، والعقد الضوي، والجواهر الثمين، وتاريخ بازرة الدوعني، وتاريخ ابن الطيب، وتاريخ باسنجلة، وتاريخ بافقيه الشحري وغيرها^(٢).

ولبعض أمراء آل كثير آثار جميلة في نصر الشرع الشريف، وتعظيم آل البيت النبوي، كما أن لكثير منهم هنات وهنات.

(١) طبع هذا الكتاب مؤخراً سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٤م. في صنعاء على نفقة المحسن الكبير الشيخ محفوظ سالم شماغ.

(٢) هذه التواريخ لا تزال كلها مخطوطة، وهي موزعة في خزائن كتب أفاضل الحضارمة وسراتهم في بلادهم ومهاجرهم. وحيناً لو تعاون بعض أغنياء حضرموت بأموالهم وبعض أفاضلهم بفضلهم على جمع هذه التواريخ ومعارضة بعضها ببعض وتأليف كتاب جديد منها مجرد من الأخبار الراهنة والأغراض الشخصية، وأضيفت إليه المعارف الجغرافية والاجتماعية التي لا بد منها، مع إستاند كل خبر في الكتاب الجديد إلى مصدره من هذه التواريخ القديمة، إذن لكان من ذلك نفع يشاب عليه المساعدون على تحقيقه. (الزهراء).

وكان بعض أمراء آل كثير قد جلب لتمييز قوته رجالاً من يافع من جَمِير الفاطميين بجهة اليمن السفلى، وأدمجهم في عسكره حتى أطلق عليهم اسم «العسكرة» إلى الآن، فأعجبتهم حضرموت واستوطنوها. وجنحوا إلى بعض السادة العلويين وتمسكوا بهم فطابت لهم الإقامة. وكثروا بتناسلهم وبمن هاجر إليهم من قومهم، حتى اقتطعوا لهم أوطاناً وحدوداً ودخلوا في عادات قبائل حضرموت، واستمروا يشيدون مركزهم ويقوون نفوذهم حتى حكموا قرى متعددة، ثم استولوا على الشحر سنة ١١١٩هـ وطردوا منها آل كثير ومكثوا بها نحو ٤٦ سنة. ثم استطلبا جداً في الظلم، ولم يراعوا الشرع المحمدي، ولا عواطف السادة العلويين ومن ينضم إليهم من خيرة الحضرميين وعلمائهم، فاضطر هؤلاء لمعاداتهم ونصروا آل كثير، بل استنصروا بهم وحاربوا يافع فأجلوهم عن سرّة حضرموت وسنامها.

آل بريك :

وفي سنة ١١٦٥هـ ابتدأ دخول آل بريك الدوعيين إلى الشحر، وهم ممن ينتهي نسبهم إلى يافع أيضاً، فاستولوا على بعضها، وبعد بضع سنين ملكوها كلها وفي سنة ١٢٤٣هـ تولى علي بن ناجي بن بريك على الشحر، وهو آخر من ملكها من تلك الأسرة، وأخرجه منها عنوة السلطان غالب ابن محسن بن أحمد الكشيري سنة ١٢٨٣هـ فكانت مدة ملك علي ٤٠ سنة، ومدة دولة آل بريك كلها نحو ٨٨ سنة. ومات علي هذا في الحج

يوم ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٩٢هـ، وفي مدته - وذلك سنة ١٢٦٦هـ - وصل السيد إسحق بن عقيل بن عمر بن يحيى من جدة قاصداً الاستيلاء على الشحر في مركب شراعي ومعه نحو ٤٠٠ تركيا، وكان البحر هائجاً فلم يقدر على الدنو من الشاطئ، فذهب بمركبه إلى ميناء قريب منها يسمى شرمة، فلقبه فيها آل بريك فكسروه وانهزم إلى قُصَيْر، وهي قرية على ساحل حضرموت أيضاً، فأقام بها إلى هدوء البحر ثم نزل إلى دُفَيْقَة، وهو ماء يبعد عن الشحر شمالاً بنحو ميلين، ووصل بعض أهل حضرموت لإنجاده فصمد إليهم الكسادي اليافعي نقيب المكلا في الطريق فشتتهم وعادوا من حيث أتوا، ففُتَّ عضد السيد إسحق ورجع إلى جدة من غير طائل.

السلطان غالب بن محسن :

هو محيي ملك آل كثير بعد اندثاره بتغلب يافع على جميع وادي ابن راشد (ما بين شبام وقسم). وكان قبل أن يتأمر بحضرموت ممن هاجر إلى الهند وتوظف في العسكرية عند ملك الدكهن، فصار نواباً، واكتسب ثروة ساعدته على إخراج يافع من قلب حضرموت، علاوة على ما كان يمدّه به من المال والجاه بعض من قام معه من السادة العلويين. ثم فتح الشحر عنوة في ٦ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٣هـ فهرب عنها آل بريك ممتطين مراكبهم الشراعية الماخرة عرض البحر وبذلك تفوضت دولتهم حتى الآن. وكان السلطان غالب شجاعاً صالحاً حسن الأخلاق محبوباً رقيقاً، رحمه الله.

العائلة القعيطية :

كان مؤسسها - وهو الحاج عمر بن عوض القعيطي - أحد أمراء الجالية الحضرية بالهند في حيدر أباد الدكهن، قام منذ نحو ٨٠ سنة، فنصر قومه يافع وبذل أموالاً طائلة في نصرهم، ورد من رحل من حضرموت منهم إلى ما بقي لهم منها كبلاد القطن وحصون يافع بجوارها، وأرضى من قدر على إرضائه من السادات، وأظهر لهم احتراماً وإجلالاً ثابر عليه هو وورثته إلى الآن فاستجلب لذلك من نفر عنه. ولم يزل يكذب ويكذب ويسعى ويبذل حتى ظفر بمدينة شبام غدرًا سنة ١٢٧٤هـ على يد موله الحاج الماس الحبشي. ثم بعد موت الحاج عمر خلفه أولاده عوض وصالح وعبدالله وهؤلاء مولودون بحيدر أباد دكهن وجل أولادهم، ولم يزل لهم بها مركز مهم وجاه واسع وثروة طائلة وذكر حسن، فسلكوا سبيل أبيهم، وساعدهم على نيل مآربهم أمور صدرت من آل عبدالله اضطرت بعض ذوي النفوذ الروحي إلى نصر أعدائهم عليهم، فتم لهم بذلك وبسعي الأمير عوض - الذي سمي أخيراً السلطان عوض - الاستيلاء على جميع شواطئ حضرموت من مهرة شرقاً إلى قرب وادي حجر المشهور بنهره وكثرة نخيله في الجاهلية والإسلام إلى الآن.

ولد السلطان عوض سنة ١٢١٦هـ، وفي سنة ١٢٨٤هـ جهز على الشجر جيشاً جراراً مؤلفاً من عرب وهنود قدم بهم بحرًا من الهند، فما عتم أن فتحها عنوة وقوض منها سلطان آل كثير، ثم استولى أخيراً على غيرها. فكانت الحكومة اليافعية هي الثانية ترتيباً والأولى قوة والأوسع

نطاقاً. وقد كاتبت الإنكليز على بلد الأمير عبدالله بن عمر أخي السلطان عوض ووكيله. ثم وسع السلطان ملكه واستولى على حجر سنة ١٣١٠هـ وتملك بعدها دوعن واستفحل أمره وهابته قبائل حضرموت. توفي رحمه الله عام ١٣٢٧هـ. وقد كان رجل حزم وعزم وجدّ وجلد وشجاعة ودماثة أخلاق، محافظاً على الصلوات والصيام، بعيداً عن قاذورات أمراء الهند. ثم خلفه بعد موته ابنه السلطان غالب - رحمه الله - فسار على منهاجه، وكان وزيره المدير له الأمور هو وزير والده والنافذ الكلمة عنده السيد الحسين بن حامد بن أحمد المحضار العلوي، وهو أيضاً وزير السلطان عمر بن عوض بن عمر.

الحكومة الآن^(١):

أما الآن فقد استقرت الحال على ما يأتي: يحكم السواحل كلها مع ما انضم إليها غربي عين بامعبد السلطان عمر بن عوض بن عمر بن عوض القعيطي اليافعي المتملك حسب وصاية أبيه عوض بعد أخيه المرحوم غالب، كما أنه أيضاً يحكم جميع دوعن والقطن وشبام وحجر ابن دغار ويلحق به عدد من القبائل.

وتنحصر سلطنة آل عبدالله بحسب معاهدة عدن في تريم وسيون، وهما خير مدن القطر الحضرمي، وإن لم تكونا أكثر سكاناً، ذلك أن بهما عدداً من أهل العلم والثروة. ويلحق بهما ثلاث قرى أخرى هي: غرف

آل زيدان، وتريس، وغيل الشناظير. ويتمي إلى السلطنة من العشائر الشافرة وهم: آل كثير والعوامر وآل باجري وآل جابر، وهؤلاء كلهم ليسوا تحت حكم السلطان، بل لكل طائفة منهم رئيس وحدود، ولهم جميعاً رئيس عام، على أن بعضهم يحارب ذلك الرئيس أيضاً وبعضهم يحارب السلطان كما تقدمت الإشارة إليه.

وهناك قسم ثالث من حضرموت وهو الأوسع مساحة والأقل قيمة لا حكم فيه حقيقي لأحد. ولكل بقعة منه رئيس اسمي. والكلام على عادات الحضارمة وقوانينهم وتاريخ تلك الجهات وما هو ظاهر للعيان من آثار عاد الأولى وغيرهم كحمير والملوك الإسلاميين، وشرح كل ذلك شرحاً دقيقاً يحتاج إلى تأليف كبير.

الآثار والكنوز:

بناء على عادية حضرموت وتعاقب المدينيات عليها فالمتظنون أن ما هو مدفون تحت الرمال وتحت أنقاض الخرائب وفي أجواف المغائر والمقابر، أكبر قيمة مما كتب في التواريخ عنها وأكثر فائدة وأدق نبأ. ومنذ سنوات قليلة كشف السيل عن آثار مهمة ذهبية فضوية وحجرية وجواهر كريمة في مقابر حميرية بوادي مرخة بيع جلها بثمان بخس في عدن والهند، وسبك العربان كثيراً مما وجدوه من الحلبي والنقود والأصنام الذهبية والفضية سبائك؛ لظنهم أن ربهم إنما يكون في ذلك، وكثيراً ما يوجد هناك أحجار وآثار عليها كتابات جملة لا يوجد من يحل معماها.

الحضارمة والهجرة:

لم تزل الهجرة من دأب الحضرميين منذ عرفهم التاريخ، وقد ملأوا سواحل الصومال وغيرها من شمال أفريقية في سابق العصور قبل الإسلام وبعده، وطالما انتشرت جالياتهم في العراق ومصر والسودان والأندلس وغيرها بعد الفتح الإسلامي، فكان لهم ذكر وأثر لا ينسى، ولنشاطهم في الأسفار وشغفهم بالتجارة واعتمادهم على الكسب من البلاد البعيدة، توغلوا في أفريقية، فأسلم بدعوتهم من أسلم من الحبشة والصومال وشرقي أفريقية إلى رأس الرجاء الصالح، ومن في الجزائر التي بجوار تلك السواحل مثل مدغشقر وجزائر القمر، وكذلك أيضاً جل من أسلم من سكان الشطوط الجنوبية من الهند ومثلها الشرقية منها، وبعض من في داخلية تلك الأقطار، ومن في برما وسيام وسومطرا وجاوا وفلبين وما جاورها. ويبلغ عدد مسلمي هذه الأصقاع النائية الفسيحة أكثر من مائة مليون نسمة، كلهم إلا الغريباء فيهم - وقليل ما هم - على مذهب الحضارمة وطريقتهم. وقد صار للحضارمة هناك عز كبير ونفوذ واسع النطاق وثروة طائلة وإمارات متعددة، ولم يزل إلى الآن بيدهم من ذلك شيء له قدر إن حفظوه ونموه، وتفصيل ذلك يحتاج إلى مصنف ذي أجزاء عديدة.

عبقرية الحضرمي:

الحضرمي - كغيره من العرب - ذكي الفؤاد نشيط البدن شجاع القلب حاضر الذهن قوي الذاكرة، ثم إنه جسور على خوض الغمرات بعيد

الهمة كبير الطمع محب للعمل جموع للمال، مقتصد في النفقة إلى حد التقشير، ثابت فيما يشتغل فيه إلى حد الجمود، دمث الأخلاق، موفٍ بالعهد، ألوفٌ عطوف، خفيف المتونة قلما ينزل بقوم فيستقلون ظله أو يملون نوايه، بل يُزلونه في القلوب، ويقاسمونه الأوطان عن رغبة ومجبة وغيطة. ولم يزل إلى الآن السون بعيداً بين البلاد التي كثر فيها الحضارمة والبلاد التي لم يكثروا فيها في الأصقاع الهندية الشرقية.

ولقد أقلقت مسألة الحضارمة بال الحكومة المستعمرة بتلك البلاد برهة طويلة حتى التجأت إلى دوس عدلتها بالضغط عليهم وتغيير الأهالي منهم ومنعهم بتاتا من دخول بعض المقاطعات الجاوية إلى عهد غير بعيد، إذ تصدى المستشرق الشهير سنوك هور غرونجه لهذه المسألة فحلها حلاً نهائياً. وبذلك زال سوء التفاهم السائد بين الدولة والحضارمة وحل مكانه الوثام والثقة المتبادلة. قال العلامة الأمير شكيب أرسلان في هامش كتاب حاضر العالم الإسلامي (١: ٦٧):

«ثم إن هناك (بجاوا) مسألة مهمة يقال لها مسألة الحضارمة. هذه تكررت الحكومة الهولندية اهتماماً أكثر من كل مسألة سواها في الجاوا، لأنه معلوم كون أهل حضرموت من أقوم أهل الأرض على الأسفار، وأن فقر بلادهم مع مضاء عزميتهم يحملانهم على جوب الآفاق، وأكثر ما ينتشرون في جزائر الجاوا والبحر المحيط، فكانت الحكومة الهولندية تحسب لهم حساباً كبيراً، وأشد ما يضيّق صدرها بهجرتهم إلى تلك البلاد خشية أن ينشروا الدعوة الإسلامية أو ينيهوا الأهالي السذج إلى الأمور التي لولا

الحضارمة ربما لا يبتهبون إليها، فما زالت تضع الحواجز أمام نزولهم في تلك الديار وتراقب حركاتهم وسكناتهم، وهي تحتج لذلك بكونهم في الأكثر أفاقين لا يأتون إلى جاوا بشيء من رؤوس الأموال، وأنهم يمنعون غير المسلمين من دخول بلادهم حضرموت فلا يحق لهم إذاً أن يطالبوا بدخول بلاد هولندا. وبناء على ذلك فقد ضويق الحضارمة. . . ولكن لم تخل الحال من كون كثيرين من الحضارمة تمكنوا من الدخول وأوطنوا تلك الديار وصاروا من أهلها، فترتب على ذلك أن الحكومة الهولندية التي هي من الأصل غير مرتاحة إلى وجودهم بين مسلمي الجاوا لكيلا تسيطر حصافتهم على سذاجة هؤلاء ويوظفهم من غفلتهم التي هي درة الحلب الاستعماري، قد جعلت تُضَيِّقُ عليهم في غدواتهم وروحاتهم وتنغص عليهم عيشتهم وتفعل ماشاءت لتحملهم على ترك تلك الديار.

فالأستاذ هورغرونجه يتكلم عن هذه المسألة بما يلي تعريه:

« إن عدم قبولنا للحضارمة من الأصل لم يكن مخالفاً للعدل وكانت له أسباب يمكن أن يبنى عليها، فلم تنتبه لها الحكومة، وسمحت لهؤلاء بالدخول على شروط يسهل عليهم القيام بها. لكنها بعد أن سمحت لهم بالإقامة جعلت تراقب حركاتهم بصورة لا تطاق، وربما كان لسياسة المأمورين الذين تختلف أنظار بعضهم عن بعض في الشدة وعدمها مدخل في تشديد هذا الخناق على الحضارمة، بحيث أصبح العربي لا يملك هناك شيئاً من الأمان على حاله واستقباله. . . »

وبعد، فهذه عجالة في أحوال الحضارمة في بلادهم وخارجها، التزمنا فيها الإيجاز؛ لأن مقام البسط في المصنفات الكبيرة لا في فصول المجلات، وفيما أوردناه ما يمثل لحضرموت صورة مصغرة في أذهان القراء.

★★★★★

حضر موت بلاد الأحقاف^(١)

بقلم الأستاذ: صلاح البكري^(٢)

على بعد خمس عشرة درجة عرضاً شمالي خط الاستواء وخمسين درجة طولاً شرقي غرينتش Greenwich، وما بين مهرة شرقاً وعدن غرباً ورمال الدهناء شمالاً والبحر العربي جنوباً، تقوم سلسلة جبال صخرية جرداء، وبين هذه الجبال تقوم أودية فسيحة منبسطة متصل بعضها ببعض من جهات ومقطوعة من أخرى، وقديماً كانت هذه الأودية وهذه الجبال تسمى الأحقاف، وإنما سميت حضرموت لسبب ذكره بعض المؤرخين، ذلك أن عامر بن قحطان أول من نزل الأحقاف، فكان إذا حضر حرباً أكثر

(١) محاضرة القاها في دار 'جماعة التعارف الإسلامي' بالقاهرة، نُشرتها مجلة الفتح في الأعداد ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٩ لسنة ١٣٥٣هـ القاهرة.

(٢) صلاح البكري (١٩١٢ هـ - ١٩٩٣ م) ولد في إندونيسيا، وتلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة الإرشاد العربية بجاكارتا، ثم سافر إلى مصر عام ١٩٣٠ م، ودرس مرحلتني الكفاءة والثانوية، ثم التحق بجامعة القاهرة، وتخرج في كلية الآداب قسم التاريخ عام ١٩٣٨ م ثم التحق بمعهد التربية العالي وحصل على دبلوم التربية وعلم النفس عام ١٩٤٠ م. وعين مدرساً بمدرسة القباري بالإسكندرية، ثم نقل إلى مدرسة محمد علي بالقاهرة.

وفي عام ١٩٥٠ م ترك التدريس وسافر إلى هولندا واشتغل مديباً بالقسم العربي بإذاعة هولندا. وفي عام ١٩٥٢ انتدب للتدريس بمدرسة الفلاح الثانوية مكة المكرمة. وفي عام ١٩٥٧ م اشتغل مديراً لقسم الأحاديث بالإذاعة العربية السعودية بجدة، ثم مديراً لإذاعة نداء الإسلام، ثم مراقباً دينياً لهذه الإذاعة. صدرت له العديد من الكتب أهمها: تاريخ حضرموت السياسي، جزآن، في جنوب الجزيرة العربية، اتحاد الجنوب العربي، الجنوب العربي اليوم، القرآن وبناء الإنسان، حضرموت وعدن وإمارات الجنوب العربي، في شرق اليمن، الاتجاهات الجديدة في سياسة التعليم، جغرافيا البلاد العربية، في الشمال الغربي للمحجاز.

من القتل فصاروا يقولون عند حضوره حضر موت، ثم صار ذلك عليه لقباً وصاروا يقولون للأرض التي بها قبيلته هذه أرض حضر موت ثم أطلق على البلاد نفسها. وفي التوراة اسم حضر موت حاضر ميت.

ويسكن حضر موت اليوم نحو مليون نسمة ويقال لهم الحضرميون أو الحضارمة أو الحضارم، وهم شعب عربي حاد الذكاء قوي الذاكرة بعيد الغر حر الضمير طاهر الذليل شجاع كريم لم يقهره حاكم جائر ولا فاتح طاغية، لم يخضع لإيوان كسرى ولا لبلاط قيصر، لم يبلغه فسق الروم ولا ترف الفرس فهو نشأ بمعزل. نشأ مستقلاً في كل شيء: في حياته، في أعماله، في حركاته وسكناته.

وتنقسم حضر موت إلى دورين عظيمين: جاهلي وإسلامي.

الدور الجاهلي

يختص هذا الدور بقوم عاد وأقيال التبابعة وملوك حمير وكندة.

عاد:

هم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام، وكان أبوهم أول من ملك من العرب، وطال عمره وكثر ولده. ولما مات ملك بعده أبناؤه الثلاثة شدّاد وهو الذي وطئ الممالك واستولى على الشام والعراق، وبعده شديد، وبعده إرم وهو الذي بنى إرم ذات العماد كما ذكره ابن سعيد عن البيهقي. وقيل شدّاد باني إرم. قال كثير من مؤرخي العرب إنه لما سمع إرم أو شدّاد بن عاد بالجنة وما أعد الله فيها لأولياؤه من النعيم بنى مدينة إرم في

حضر موت وقيل في صحاري عدن وحلاها بالذهب والياقوت والزبرجد، قيل إن بناءها استمر دهرًا طويلاً، ثم بعث الله إليه هوداً عليه السلام فلم يؤمن به فهبطت عليه صيحة من السماء فمات هو وقومه وساخت المدينة في الأرض. وقال آخرون إن إرم هي قبيلة عاد نفسها، ولعل هذا هو الصحيح، فإن عاداً كانت على جانب عظيم من العظمة والجبروت، ولما جاءها هود عليه السلام عرضوا عنه لكبريائهم، فأرسلت عليهم الصيحة من السماء فأبادت قوتهم وعظمتهم. قال ابن خلدون الحضرمي: «والصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها إرم، وإنما هذا من خرافات القصص وإنما ينقله ضعفاء المفسرين. وإرم المذكورة في قوله تعالى ﴿إرم ذات العماد﴾ القبيلة لا البلد.

الأقيال:

كانت حضر موت منذ العصور الواغلة في القدم تنقسم إلى إمارات صغرى أو أقيال جمع (قَيْل)، والقيل هو الأمير يسكن حصناً أو قلعة ومن حوله بيوت الأنصار والحاشية والخدم. وكان هؤلاء الأقيال أشبه بالأشراف في عهد الإقطاع في القرون الوسطى بأوروبا. وكانوا يتغازون بهجوم القوي على من دونه فيتغلب عليه ويستولي على أملاكه، فإذا امتدت سلطته وطار صيته كَوّن مملكة وسمى نفسه «ملكاً»، وعلى هذه الكيفية تكوّنت الممالك ونشأت الدول في جزيرة العرب.

حمير Homeritae:

كان الحميريون يقيمون في ريدان (ظفار). وفي أيام شميرعش

استولى على مملكة السبئيين ثم على حضرموت. وذكر اليونانيون أن عدد الملوك الذين حكموا حضرموت (١٣ ملكاً) أولهم شميرعش وآخر ذونواس، واعتمدوا في ذلك على ما وجد منقوشاً على بعض الآثار، ولكن تعدادهم هذا لم يكن مقطوعاً به فلا ينهض حجة في الموضوع إذ ربما كان هناك أسماء ملوك آخرين لم يقفوا عليها في الآثار التي لاتزال مدفونة في الرمال. أما العرب فقد خالفوا ما ذكره هؤلاء من بعض الوجوه، فقالوا إن عدد ملوك حمير الذين حكموا حضرموت (١٦) ومدة حكمهم ١٧٠٠ سنة. وبما دونه التواريخ أن دولة حمير دولة قوة وفتح وحضارة، فشميرعش أو كرب أول ملك حميري حضرمي اخترق بجيشه شمال الجزيرة العربية وغزا العراق وفارس ووصل إلى مدينة الصفد وراء جيحون. واخرق أفريقيس شمال أفريقيا وفتح المغرب ونقل قبائل عربية إليها، ووطئ أسعد أبو كرب أرض أذربيجان وحارب الترك، وبعث ابنه حسناً إلى الصفد وابنه جعفرًا إلى القسطنطينية والروم، فقدم له أهل القسطنطينية الجزية، وسار إلى روما وحصرها، وأرسل ابن أخيه شمر ذا الجناح إلى الفرس فهزمهم، وغزا الصين فوجد حسناً قد سبقه إليها فغلبا الصين وانصرفا بما معهما من الغنائم. وقيل إن قومًا من الحميريين أعجبته بلاد الصين فاستوطنوها واندمجوا في أهلها وتخلقوا بأخلاقهم. وفي سنة ٣٤٥م غزا الأحباش الحميريين فاستولوا على اليمن وحكموها نحو ٢٨ سنة ولكن حضرموت لم تخضع لحكمهم سواء في أيام العلي إسكندي أو في عهد ولديه عيزاناس وسازاناس، وكذلك حافظت على

استقلالها أيام أربا وأبرهة ويكسوم ومسروق.

ازدهار التجارة في عصرهم :

بالرغم عن انشغال الدولة الحميرية بالحروب والفتح فقد بذلوا كل مستطاع لترقية التجارة ولتقوية الروابط الاقتصادية بينهم وبين الهند وسواحل أفريقيا الشرقية، وبينهم وبين نجد والحجاز والشام ومصر، وكانت مدينة الشحر أعظم ميناء وأكبر مركز تجاري في جنوب بلاد العرب، فكانوا يأتون من الهند بالدر والياقوت والزبرجد والعاج والأطياب وخشب الأبنوس والقطن والتوابل، ومن سواحل أفريقيا الشرقية الذهب والعاج والعمود وريش النعام، ومن البحرين كانوا يأتون باللؤلؤ. قال بطليموس إن هذه الأصناف وغيرها من غلات حضرموت كالبخور واللبان والمر واللاذن وما إلى ذلك تحملها القوافل من حضرموت وتسير بها شمالاً ومخرقة رمال الدهناء إلى نجد، ثم تعطف إلى الحجاز ومن هناك يستلمها المدنيون والأنباط ويذهبون بها إلى مدائن صالح فالى سلع (بتر)، ومن سلع تسيير إلى مصر أو إلى فلسطين وإلى صور وغزة وغيرها من شواطئ البحر الأبيض.

ولما تولى عرش مصر سبتي وقيل ابنه سيزوستريس الثاني احتفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر، وأرسل سفنه التجارية إلى الشحر وغيرها من موانئ جنوب بلاد العرب، فاتجهت أنظار الحضارمة إلى إرسال متاجرهم بطريق البحر فارتقت الملاحة الحضرمية وانتعشت أسواق حضرموت. ولما مات سبتي أو سيزوستريس أهملت القناة وتعطلت ولم

يهتم المصريون بالأسفار، فانكسحت الملاحة الحضرمية وتقلصت مواصلاتهم البحرية، لكن لم تطل المدة على تلك الحال حتى نهض ملك اورشليم سليمان وأنشأ السفن في عسيون جابر على مقربة من أيلة (العقبة) بمساعدة حيرام ملك صور، ثم أرسلتا سفنهما تجري في البحر وترسو في ميناء الشحر وزفر (ظفار) وغيرها من مواني جنوب بلاد العرب وسواحل أفريقيا الشرقية والهند والخليج الفارسي، فعادت الملاحة الحضرمية إلى نشاطها الأول وانتعشت الأسواق من جديد، ولما توفي سليمان ملك بني إسرائيل لم يهتم حيرام ملك صور بالأسفار فعاد الحضرميون إلى إرسال متاجرهم بالقوافل. ولقد أسس الحضرميون جالية كبيرة في الهند في جدروزيا الواقعة بين جبل كريبلا ومصب نهر السند، وبنوا مدنا وأنشأوا أسطولا وقبضوا على زمام التجارة هناك وكانت سلطتهم دونها كل سلطة. قال العلامة المسيو جيان Guillain في كتابه Documents, Sur L, Histoere, La Geo - Graphie et Le Commerce De L, Afrique Orientale " وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية":

"قبض العرب منذ أقدم العصور على زمام التجارة البحرية وبخاصة في الشرق، فكانت سفنهم هي الوحيدة التي تمخر المحيط وبخاصة فيما بين بلادهم والهند التي كانت لهم جالية على سواحلها قرب نهر السند هي التي أسماها الهنود عربيتو Arabitoe أي العرب، ولما أرسل إسكندر المقدوني قائد أسطوله نيارك Nearque لاستكشاف بحر الهند وجد بسواحل جدروزيا آثاراً دالة على نفوذ العرب من مدن عربية، وأساطيل عربية وكان

الربان الذي أرشده في ذلك البحر عربياً.

حضارة حضرموت :

بلغ الحميريون من المدنية والحضارة مبلغاً ليس له في عهدهم مثيل، فقد بنوا القصور الشاهقة، وعمروا المدن الواسعة، واحتفروا الترع والسواقي، وأنشأوا السدود (الخزانات)، واغترسوا الحدائق والبساتين، وكانوا في ترف ونعيم، لباسهم من أفخر الأنسجة، ورياشهم من الحرير، وآتيهم محلاة بالذهب، وأثاثهم مزين بالفضة. قال نورمان نقلاً عن أغانرسيديس في الجزء الثالث من كتابه «خلاصة تاريخ الشرق القديم» Manuel de l'histoire Ancienne de l'Orient إن قصورهم قائمة على الأساطين المحلاة بالذهب، وإنهم يعلقون على أبواب منازلهم صحائف الذهب المرصعة بالجواهر، وتحيط منازلهم بساتين غناء، ولديهم الموائد والأسرة من الفضة، والرياش من أفخر الأنسجة، إلى آخر ما هناك مما يفوق التصديق. ولعل أكثر الناس يندهشون من بذخ الحميريين وترفهم، ولعلمهم لا يؤمنون بما كان يستعمله أولئك الأسلاف من الذهب والفضة والجواهر في أثاثهم وآتيهم وحيطان منازلهم وأبوابها؛ لأن بلاد العرب كما يعتقدون ليست كلفورنيا أو أرجنتينا في معادنها، وإنما هي جبال جرداء وصحاري جدياء ورمال غبراء، ولو كانت هناك مناجم لكان لها اليوم أثره. والحقيقة أن ما قيل عن حضارة الحميريين ومدنيتهم حق باتفاق المؤرخين، وأن بلاد العرب كانت قديماً تشبه كلفورنيا وأرجنتينا في مناجم الذهب والفضة، وأكثر هذه المناجم وأقدمها عهداً في مدين. ولقد ألف بارتون Burton

كتابه الموسوم **The Gold Mines Of Midian** «معادن الذهب في مدين» وصف فيه معادن بلاد مدين وماكان يستخرج منها من الذهب والفضة والفصوص والبلّور، وذكر كثيراً من آثار تلك المناجم العظيمة. ثم إن هناك مدينة زفر كان بها أعظم منجم للذهب في عهد بلقيس إلى ما بعد ظهور الإسلام. جاء في التوراة (الإصحاح ٨ عدد ١٧ من سفر الأخبار): «حيثئذ ذهب سليمان إلى عصيون جابر وإلى أيلة على شاطئ البحر في أرض أدوم، وأرسل له حورام بيد عبيده سفناً وعبيداً يعرفون البحر، فأتوا مع عبيد سليمان إلى أوفير - زفر - وأخذوا هناك ٤٥٠ وزنة ذهب وأتوا بها إلى الملك سليمان».

أما موقع أوفير أو زفر فقد اختلف فيه المؤرخون وأتوا بأقوال متضاربة قال المسيوجيان **Mr. Guillain** إنها في الساحل الشرقي عن أفريقية، وقال: إن العرب كانوا يستخرجون منها الذهب وإن لهم فيها مغاير لاتزال مشهودة وقد رآها الكابتن بانجر الفرنسي وعلى قبرياتها أسماء أصحابها منقوشة بالعربية وهم الذين أسموها زفر. وقال آخر إنها في الهند. وقال العلامة المرحوم أحمد زكي باشا: أوفير هي مدينة (وبار). وقال المستشرق الفرنسي العلامة كاترمير **Quatremere** إنها على سواحل بلاد العرب. وقال الجغرافي الفرنسي جوزيف جوسلن **Gosselin** في الجزء الثاني من كتابه المرسوم «أبحاث في الجغرافيا الأصولية عند الأقدمين» إن ظفر هي ظفار **Dafar**.

هكذا تضاربت آراء العلماء، وإذا فرضنا جدلاً أن زفر في الهند أو في سواحل أفريقية الشرقية فإن هذا يجعلنا نشك فيما قاله المؤرخون من أن الحميريين كانوا يصنعون آنتيم من الذهب ويزينون حيطان غرفهم بالحجارة الكريمة ويعلقون أمام منازلهم صحائف الذهب المرصعة بالجواهر، إذ ليس من المعقول أن يأتوا بتلك المعادن الثمينة من الهند ومن سواحل أفريقية الشرقية والمسافة بينهم وبين تلك البلاد النائية بضعة شهور، الأمر الذي يكلفهم مصاريف باهظة ومتاعب شاقة. ليس من المحتمل أن يجلبوا تلك المعادن الغالية من البلاد القاصية ثم يصنعوا منها آنتيم ويزينوا بها أثاثهم ومنازلهم، إذن لابد أن تكون زفر من بلاد العرب ولا بد أن تكون من أراضي الدولة الحميرية أو على مقربة منها. إذن فالقول ما قاله العلامة الجغرافي الفرنسي جوسلن **Gosselin** بأن زفر هي ظفار التي كانت داخلة في حدود حضرموت، وليس هناك فرق بين الكلمتين كالفرق الذي بين زفر ووبار.

أما عدم وجود أثر للمناجم اليوم فهذا لا ينهض حجة في عدم وجود معادن البتة، وإنه لمن المحتمل أن تكون هناك مناجم كثيرة لمعادن ثمينة لا تزال بكراً، ولكن الجهل الضارب أطنابه في جنوب الجزيرة العربية الآن هو الذي أعمى أبصارنا عن مواقع تلك المناجم وحرماننا استغلال تلك الكنوز الثمينة.

الآثار:

لعادِ والاقبال وملوك حمير آثار هامة وكنوز ثمينة لا يزال أغلبها مطمورا تحت الرمال ومدفوناً في بطون الأودية والجبال، فهناك صخور عليها كتابات ورموز ونقوش لا يوجد بين أهلها من يحل أسرارها، وهناك أيضاً مغارات عميقة منحوتة في الجبال قيل إن فيها كنوزاً وأثاراً، ولكن أغلب الأهالي يعتقدون أنها مساكن الجن، وقد حاول أفراد دخولها فانطفأت المصابيح التي حملوها معهم لكثرة ما فيها من ثاني أكسيد الكربون فعادوا خوفاً من أن يضلوا الطريق فيهلكوا.

وفي سنة ١٣٣٥هـ جاء سيل عظيم فكشف عن آثار هامة من حلي ونقود وتمائيل من ذهب ومن فضة بيع جلها في عدن وجيبوتي بثمان بخص.

ومن يقارن الآثار الحضرمية القديمة بالآثار المصرية القديمة يجدها متشابهة تمام التشابه، وفي ذلك حجة أخرى لبعض المستشرقين من الألمان وغيرهم على أن المصريين القدماء فوج من قبائل آسيوية مرت بحضرموت في طريقها إلى الحبشة ثم إلى وادي النيل. ومن دواعي الأسف أنه لا يوجد في حضرموت اليوم من يعرف فن الآثار أو يهتم بالبحث عن مخلفات الآباء والجدود. وياليت المشتغلين بفن الآثار من إخواننا المصريين والسوريين يرسلون طائفة منهم إلى حضرموت لاكتشاف الآثار القيمة والكنوز الثمينة قبل أن يسبقهم إليها الغربيون، وإنهم بلا شك سوف يجدون من الحكومة ومن الشعب كل مساعدة وكل تشجيع.

الدور الإسلامي:

في السنة السابعة للهجرة وفد على رسول الله ﷺ وائل بن حجر بن ربيعة بن وائل الحضرمي، وقيل إن رسول الله ﷺ بشر به أصحابه قبل قدومه وقال يأتينكم بقية أبناء الملوك، فلما جاء رجب به وأدى مجلسه وبسط له رداءه وقال «اللهم بارك في وائل وولده وولد وولده» واستعمله على الاقبال من حضرموت. وروى صاحب «البداية والنهاية» أن النبي ﷺ أقطعهم أرضاً وأرسل معه معاوية بن أبي سفيان فخرج معه راجلاً فشكا إليه حر الرمضاء فقال له انتعل ظل الناقة فقال وما يغني عني ذلك، لو جعلتني ردفاً، فقال له وائل اسكت فلست من أرداف الملوك. ثم عاش وائل حتى وفد على معاوية وهو أمير المؤمنين فعرفه معاوية ورحب به وأذكره الحديث وعرض عليه جائزة سنوية فأبى أن يأخذها وقال: أعطها من هو أحوج إليها مني.

جاء الإسلام وكندة صاحبة الحول والطول والتاج والصولجان، وقد هاجرت من البحرين والمشرق بعد قتل ابن الجون، وكان الذي نقل منهم إلى حضرموت نيفا وثلاثين ألفاً وكانوا من أوائل الداخلين في الإسلام، ذكر بعض المؤرخين أن الأشعث بن قيس أحد سادات كندة قدم على رسول الله ﷺ في بضعة عشر ركباً مسلماً، ولما أراد الانصراف سأل النبي ﷺ أن يولي عليهم رجلاً فولى عليهم زياد بن ليبيد البياضي الأنصاري، ولما توفي رسول الله ﷺ امتنع الأشعث بن قيس عن البيعة لأبي بكر رضي الله عنه، واعتزل في كثير من كندة وامتنعوا عن دفع الزكاة لزياد،

فحاربهم زياد وأسر الأشعث وبعث به إلى أبي بكر في سنة ١٢هـ، فجعل يكلم أبابكر وأبو بكر يقول فعلت وفعلت، فقال الأشعث استبقتي لحريك فوالله ما كفرت بعد إسلامي ولكن شححت على مالي، فأطلقه أبو بكر وزوجه اخته أم فروة، ولم يزل بالمدينة إلى أن سار إلى العراق غازياً ومات بالكوفة وصلى عليه الحسن بعد صلح معاوية.

وفي أيام مروان بن محمد ظهر عبدالله بن يحيى الكندي الملقب بطالب الحق وأراد الخلافة لنفسه، وكان مجتهداً عابداً صالحاً رأى باليمن سيرة في الناس قبيحة فسار من حضرموت إلى صنعاء سنة ١٢٩ في ألفين من أصحابه واستولى عليها وأقام بها أشهراً يحسن السيرة في الناس فعظم قدره وعلا مقامه، ثم استولى على مكة والمدينة عنوة على يد قائده أبي حمزة المختار، فخاف مروان أن يستولى الحضارمة على الشام فانتخب أربعة آلاف من أبطال عسكره وبعث بهم تحت قيادة عبدالملك بن عطية واستردوا المدينة عنوة ثم زحفوا إلى مكة واستولوا عليها عنوة وقتلوا أبا حمزة وزوجته وكانت ذات شجاعة وإقدام وقتلوا أربعمائة من عسكره. ثم سار جيش الشام إلى صنعاء لقتال عبدالله بن يحيى الكندي فالتقى بهم الكندي في ألف فارس فقتل الكندي ومن معه واستولى ابن عطية على صنعاء ثم أخذ يتبع أصحاب الكندي حتى بلغ إلى حضرموت واستولى على شبام وما حولها، ثم ورد عليه كتاب مروان يأمره بالتعجل إلى مكة ليحج بالناس فشخص ابن عطية إلى مكة مع نفر من أصحابه فاعترضته

جماعة من كندة وقتلته ومن معه، ولما بلغ ذلك ابن أخيه عبدالرحمن بن يزيد بن عطية وكان والياً على صنعاء أرسل إلى حضرموت جيشاً بقيادة شعيب الباقرى فأسرفوا في القتل، ولما انتقلت الخلافة إلى العباسيين بدأت دولة كندة تنقلص وتنكمش.

ولقد كانت لنهضة بغداد العلمية ولتنشيط المأمون للعلماء والأدباء واهتمامه بالبحوث الدينية والفلسفية صدى عظيماً في حضرموت، فهب أهل تريم وشبام والهجرين والشحر يطلبون المعرفة لذات المعرفة، إذ لم تكن هناك وظائف توزع على المتعلمين ولا عطايا تمنح للأدباء، وكان العلماء يقومون بالتعليم مجاناً. ثم ظهرت سلطنة آل راشد وهم بطن من حمير هاجروا من اليمن إلى حضرموت بعد سيل العرم، وكانوا أهل زهد وورع، وأشهر سلاطينهم العالم الجليل عبدالله بن راشد بن أبي قحطان الحميري المولود بتريم سنة ٥٥٣هـ، وقد تفقه في الدين على بعض أئمة تريم والهجرين، وتولى السلطنة سنة ٢٥ فحكم بين الناس بالعدل ونفذ فيهم أحكامه الشريفة، وفي أواخر أيامه تبطل للعبادة وقتل غدراً سنة ٦١٢هـ، وبقتله انتشرت الفوضى وعم الخراب في حضرموت الوسطى، ثم تولى نهد حكم حضرموت الوسطى بطلب من أهلها وكانوا أهل قناعة وكرم. وبعد مضي ثلاث سنوات على توليهم الحكم عادوا لإصلاح بلادهم التي دمرها سيل العرم سنة ٦٢٣هـ، وقام بالأمر بعدهم أفراد من أعيان البلاد، وتنتسب نهد إلى قضاة، ومساكنهم: قعوطة ومشراح ولحماس والعجلانية.

الدولة الكثرية :

آل كثير من أعظم قبائل همدان وأشدّها قوة، طمحوها في الملك وسعرو إليه من قديم ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً؛ لأن كندة كانت باسطة ذراعها على الأحقاف. وفي سنة ٧٨٦هـ استولوا على الشحر وطردوا منها كندة، واشتهر منهم السلطان بدر بن محمد الكثيري فقد كان ذا سيرة مرضية عند جميع الناس وبذل غاية مجهوده لإعادة مجد الشحر وشهرتها الواسعة التي بلغت في الجاهلية إلى أقصى حدود الجزيرة العربية ورن صداها في آذان الفينيقيين والكلدانيين. ومن سوء حظ السلطان بدر أن عشيرته آل كثير بحضرموت الداخلية لم تعضده وتسانده بالمال والرجال، وقد انتهزت كندة هذه الفرصة فهجمت على الشحر واستولت عليها سنة ٨٣٨هـ على يد قائدها المقدم سعيد بن مبارك ابن فارس بادجانة الكندي، ثم صارت دولة آل كثير تتمدد مرة وتنكمش أخرى حتى بعث الله لآل كثير شاباً حاد الذكاء بعيد النظر كبير الهمة عظيم الطمح هو الأمير بدر بوطويرق المولود سنة ٩٠٢هـ، فقد أتى هذا النبيل بقوم من اليمن من يافع واستأجر جنداً من الترك واستولى بهؤلاء وأولئك على شبام سنة ٩٢٦هـ وحصنها برجال من يافع (الموسطة)، ثم استولى على سيوون وتريم وحصنها برجال من يافع (الظبي وآل لبعوس)، ثم استولى على قرى أخرى كهينز والهجرين وغيرهما. هكذا أحيا الأمير بدر بوطويرق الدولة الكثرية بعد اندثارها، وأعاد لقومه آل كثير القوة والسلطان. وفي سنة ٩٤٥هـ حاول الترك الاستيلاء على حضرموت فمنعهم السلطان بدر

بوطويرق، ثم اعترف لهم بالتابعة اسماً وأرسل جيوشه لفك حصارهم في زيد وألزم أهل اليمن بالطاعة لهم، وتوفي في سنة ٩٧٧هـ، ولقد حزنت الأمة لوفاته أشد الحزن ونعته الدولة العثمانية وأمراء اليمن.

وفي سنة ١٠٦٩هـ أرسل إمام اليمن المتوكل على الله إسماعيل جيشاً تحت قيادة أحمد بن الحسن الصفي للاستيلاء على حضرموت ولانتقام من السلطان بدر بن عبدالله الكثيري لحبه عمه السلطان بدر بن عمر، فاستولى الصفي على الهجرين وهينز وشبام وأسرف في البطش ولذلك سماه أهل حضرموت بسيل الليل.

وفي أيام السلطان عيسى بن بدر الكثيري سنة ١١١٦هـ أعلنت يافع (الرتب) الاستقلال التام في شبام وسيوون وتريم وفي الشحر والغيل، وقام جماعة من آل كثير لاسترداد ملكهم المفقود فلم يستطيعوا لأن الحصون والذخائر في أيدي يافع.

وفي سنة ١٢٦٠هـ جاء السلطان غالب بن محسن الكثيري من الهند بثروة عظيمة وجمع قومه ووجد صفوفهم وقوض بهم سطوة يافع وفتح الشحر عنوة في جمادي الآخر سنة ١٢٨٣هـ، فأحيا السلطان غالب الدولة الكثرية ووجد صفوف قومه ورفع ذكروهم ويعتبر المؤسس للدولة الكثرية الفتية، وتوفي رحمه الله سنة ١٢٨٧هـ، وكان حسن السمائل وافر العقل كثير العدل شجاعاً مقداماً.

الدولة اليافعية :

يافع من أكبر قبائل حمير وأشدّها قوة وأكرمها خلقاً، يبلغ عدد حملة السلاح منهم في بلادهم باليمن السفلى نحو ١٤٠ ألفاً، وهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم ويقال لهم اليوافع أو بنو مالك أو يافع وهو المشهور. أتى بقوم منهم إلى حضرموت السلطان بدر بوطوبرق الكثيري كما تقدم، ولما تقوى نفوذهم في الدولة الكثيرية استولوا على شبام وسيوون وتريم ومرمية وعلى الشواطئ ثم قوض سلطتهم السلطان غالب بن محسن الكثيري. وفي سنة ١٢٧٤هـ جاء الأمير عمر بن عوض القعيطي أحد أمراء الجالية الحضرمية في حيدرآباد الدكن ونصر قومه يافع وأحيا ذكرهم ورفع قدرهم وبوأهم مقعداً علياً، وقد ظفر بشبام خدعة سنة ١١٧٤هـ على يد مولاه الحاج الماس الحبشي وجعلها نواة للملكة الجديد ومقرّاً للدولة اليافعية الفتية.

ولما توفى قام بالأمر بعده أولاده الأمراء عوض وصالح وعبدالله. والسلطان عوض بن عمر أعظم شخصية في الشعب الحضرمي، ولد سنة ١٢١٦هـ وفي سنة ١٢٨٤هـ فتح الشحر عنوة وقوض منها سلطان آل كثير، ثم استولى على حجر سنة ١٣١٠هـ وهي أخصب بقعة في حضرموت، واستولى على دوعن، وكاتب الإنجليز على يد الأمير عبدالله بن عوض وتوفي رحمه الله عام ١٣٢٧هـ. وكان حاد الذكاء بعيد النظر طاهر الذليل شجاعاً مقداماً. ولّى الملك فأحسن القيام به وأظهر السطوة وقهر أهل البادية وغيرهم فهابته النفوس وأمنت البلاد واستقر السلام. ثم قام بالأمر السلطان غالب بن عوض القعيطي فسلك سبل أخيه وكان محبوباً

من جميع الناس، وفي سنة ١٣٣٦هـ عقدت معاهدة في عدن تحت إشراف الحكومة الإنجليزية بين الدولتين اليافعية والكثيرية على أن تتحدوا وتتعاونوا على إصلاح العباد وعمران البلاد.

وبعد وفاة السلطان غالب بن عوض قام بالأمر أخوه السلطان عمر بن عوض القعيطي الموجود في ثغر حضرموت الأكبر وهو يحكم الشواطئ من مهرة شرقاً إلى وادي حجر ويحكم جميع دوعن وشبام والقطن، وقد بدأ يهتم بإصلاح البلاد وعزل وزيره السيد أبابكر بن حسين لمحضر الذي كان عقبة في سبيل الإصلاح وأقام محله المصلح المقدم سالم بن أحمد القعيطي (وللعائلة القعيطية أملاك واسعة النطاق في الهند يديرها ولي عهد الدولة القعيطية اليافعية سمو الأمير المحبوب صالح بن غالب القعيطي).

والدولة الكثيرية - وتدعى بحكومة آل عبدالله - تحكم الآن^(١) بحسب معاهدة عدن جميع سيوون وتريم وهما من أعظم المدن في القطر الحضرمي وغرف آل زيدان وتريس وغيل الشنافة، وسلطانها علي بن منصور بن غالب الكثيري محبوب من الجميع، وللأمة الحضرمية عظيم الأمل في أن يتم على يديه ويدي السلطان عمر بن عوض القعيطي كل صلاح وفلاح وتزهو في عهدهما النهضة المباركة التي ظهرت في المهجر وبدأت تتسرب إلى الوطن بسعي الأسرتين الكرمتين آل طالب وآل عمودي (١٩٣٤م).

الزراعة :

ليس في حضر موت أنهار سوى نهر واحد في حجر أما الجهات الأخرى فبقاع غامرة ما عدا أجزاء صغيرة. وأراضي حضر موت الوسطى من القوط غرباً إلى قبر هود عليه السلام شرقاً أكثر صلاحية للزراعة من غيرها لقرب ماء الآبار وكثرة الطمي الذي تأتي به سيول أودية حضر موت الغربية. ويزرع في حضر موت الوسطى ثلاثة أنواع من الحبوب هي: القمح والذرة والدخن. والنخيل هناك كثير جداً وبلحه أجود بلح في حضر موت.

وتعتمد الحرائة على البقر والجمال والحمير، ولا تزال النواعير والدواليب تستخدم لانتزاع الماء من الآبار. وقد بدأ بعض الزراع يقتنون الماكينات النازحة للماء. وأهم الصادرات التبغ الحمومي وهذا يزرع بكثرة في السغيل ويسقى من عيون جارية، ويخرج من بعض الجبال اللبان الشحري والصبر والمر، ومن دوعن يصدر أجود عسل في الدنيا. والتجارة هناك كاسدة وأهم مركز تجاري مدينة شبام وإليها ترد القوافل من أنحاء اليمن، والمواصلات صعبة لكثرة العقبات ذات الانحدار الهائل. والأمن في البادية مفقود، وتبنى البيوت من الطين المخلوط بالتبن الذي يقوم مقام المونة حيث يمتص من الجو ثاني أكسيد الكربون بسرعة فيتماسك البناء ويشد بعضه بعضاً، وأكبر مدن حضر موت شبام وسيوون وتريم والمكلا، وفي هذه المدن نواطح السحاب وهذه النواطح مطلية من الداخل والخارج بالجير الأبيض مما زاد منظرها روعة وجمالاً. والجو حار جداً في الصيف

وقارس في الشتاء وهو صحي، والأمراض التي يصاب بعض الناس بها الجدري والحصبة والحمى من نوع (الورد) والرمد، ولبعض الناس مهارة عظيمة في معالجة الأمراض بالكي.

السكان :

ينقسم سكان حضر موت من الوجهة الاجتماعية إلى ثلاث طوائف كبرى:

أولها : حملة السلاح ويقال لهم القبائل وهم الأغلبية الساحقة وهم أصحاب الكلمة النافذة والأمر المطاع، ومنهم تتكون الدولتان القعيطية والكثيرية. وبعض حملة السلاح مغلوبون على أمرهم يحارب بعضهم بعضاً، ولكن حينما يأتيهم عدو من الخارج يتناسون ما بينهم من النزاع والحصام ويهبون جميعاً لمقاتلته وصد هجماته، فإذا انتهوا من أمره عادوا إلى ما كانوا فيه من قبل. وأكبر القبائل حملة السلاح: يافع وآل كثير ونهد وآل تميم، وهؤلاء من الحضرم، والمناهيل والعباثة والحموم، وهؤلاء من البادية.

ثانيها : الزراع وأهل المتاجر ومن ضاهاهم، وهؤلاء يصلحون البلاد بهمهم أكثر من غيرهم ولا يستطيع نكران فضلهم أحد.

ثالثها : العلويون وقد هاجروا من البصرة إلى حضر موت سنة ٣١٧هـ ولهم سلطة روحية أشبه بسلطة مشايخ الطرق وكانت في السابق أكثر مما هي عليه الآن. وهذا طبيعي لما طرأ على الأمة من تطور في المعارف والأنكار. ويلحق بآل علوي آل باوزير وآل العمودي وسلطتهم الروحية في

الدرجة الثانية .

والمرأة الحضرمية مبالغة في الحجاب وهي مثال العفة والشرف والصبر والقناعة مخلصه لزوجها كل الإخلاص، وهي كالمرأة الإنجليزية واليابانية تحب العمل وتقوم بنفسها بخدمة البيت، ولا عيب فيها سوى الجهل .

الأحكام :

تصدر في جميع المشاكل والمخاضات ما عدا الموارث والأحكام بحسب العرف إذ ليس هناك قوانين مدنية أو جنائية مكتوبة في كتاب . ولكل قبيلة من القبائل غير الخاضعة للحكومتين القعيطية والكثيرية حاكم يقال له المقدم أو الحكم . ويعد أغلب المتسلحين الدية في القتل عيباً واسقاطاً للقدر، ولذلك اشتهروا بأخذ الثأر وحب الانتقام .

المعارف :

قلنا إن حركة بغداد العلمية أحدثت أثراً حسناً في حضرموت، ولكن لم تظهر هناك آراء شاذة كالقول بخلق القرآن وتناسخ الأرواح . وإنما كان همُّ الحضارم تحصيل علوم اللغة والدين، وكان في تريم فقط سنة ٨١٦ هـ نحو ٣٠٠ عالم بلغوا درجة الإفتاء، ولقد اشتهر من فطاحل العلماء كثير من منهم : يحيى بن سالم بن فضل (بافضل) الملقب بسيد أهل العلم، وعبدالرحمن بن علي بن أبي حسان، ومحمد بن أبي بكر عباد، وفضل بن إبراهيم بن أبي جواس . وأعظم شاعر عرفته حضرموت هو السيد عبدالصمد بن عبدالله باكثير، وكان كاتباً للسلطان عبدالله بن عمر الكثيري،

وله ديوان كبير لم يطبع بعد . وفي سنة ٥٧٦ غزا حضرموت عثمان الزنجيلي والي عدن من قبل دولة بني أيوب وقتل كثيراً من العلماء والفضلاء، فخدمت الحركة العلمية بعد ذلك وتضاءل نورها وكاد ينطفئ .

ومن سوء حظنا وحظ أولئك العلماء الأعلام أنهم لم يهتموا بالتدوين كثيراً ففقد الشعر والرسائل البلغاء وفتاوى العلماء لم تدون في الكتب، ولذلك ضاعت . ولقد كتب عبدالصمد باكثير شاعر حضرموت الأكبر ديوانه القيم ولكنه لم يدون لنا رسائله البليغة التي كان يبعثها لولاة اليمن والدولة العثمانية، ولم يدون أيضاً خطبه السياسية والحماسية التي كان يلقيها في جامع الشحر لحث الشعب على القيام في جانب الدولة الكثيرية ضد المعارضين والمناوئين، ولو أن تلك الرسائل القيمة والخطب البليغة دونت لكانت من أكبر الوثائق التاريخية التي تنير لنا تاريخ حضرموت الغامض .

وفي السنين الأخيرة عادت الحركة العلمية تنشط من جديد وهب الحضارم يقبلون على دور العلم بشغف وخصوصاً في سيون وتريم، فإن حالة الأهالي العلمية هناك أرقى من جميع أنحاء حضرموت، ولكن المدارس سواء التي في تريم أو في غيرها ليس في مقدورها تكوين ناشئة راقية مهذبة، ولا في استطاعتها أن تخلق لنا خلقاً جديداً يزاحم الأمم في معترك الحياة ويشاركها في نواميس الاجتماع، ذلك لأنها لاتزال ابتدائية، وكل المواد التي تدرس فيها لاتتجاوز علوم اللغة والدين، فمعى أن تقوم حكومتنا القعيطي وأبي عبدالله بتأدية الواجبات الوطنية والقومية، فيؤسسوا

المدارس الراقية ويجلبوا لها المعلمين الأكفاء ويرسلوا إلى الخارج البعثات لطلب العلوم العصرية، فإن عصرنا عصر علم ونور أمسى الجهلاء في آلات صماء يستخدمها العاللون، والإسلام لم يأت لسعادة الآخرة فقط بل جاء أيضاً لسعادة الدنيا، ولقد أمرنا أن نطلب العلم دون أن ننظر إلى مصدره. قال النبي ﷺ «الحكمة ضالة المؤمن أتى وجددها التقطها» وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُو اللَّهِ وَعَدُوكُمْ﴾.

وحيث إن القوة اليوم هي الطائرات والغواصات والدبابات والترليوزات والجنود المنظّمون، فيجب علينا معشر المسلمين أن نتعلم الهندسة والصناعة والكيمياء والطب والجندية وغير ذلك من علوم الحياة ونعدّ لنا قوة في السماء وفي الماء وعلى الأرض، لا لندمر العالم ونعبث بالسلام ولكن لندافع عن أنفسنا وديننا وعن أموالنا وديارنا.

الحضارة والهجرة :

الحضارة من أكثر أُمم الأرض إقداماً على الأسفار وأكثرها صبراً على خوض الغمرات، بعيدو الهمة كبيرو الطامع، ولعوا بجوب الآفاق من قديم. ولما جاء الإسلام وامتدت فتوحاته هاجر قوم منهم إلى سواحل الصومال وشواطئ أفريقية الشرقية حتى رأس الرجاء الصالح ومدغشقر فأسلم بدعوتهم من أسلم من أهالي تلك البلاد النائية. وهاجر فوج إلى الشمال، ولعصاميّتهم وعبريتهم نالوا القضاء في دمشق ومصر والأندلس. وفي سنة ١٢٩٢هـ بدأوا يهاجرون أفراداً وجماعات إلى

إندونيسيا (جاوة وماحولها من الجزائر) وكانوا أكبر الأيدي العاملة لنشر الإسلام في تلك الأصقاع النائية. ولقد أصبح الأرخييل المألزي بوجه عام وجاوه بوجه خاص وطناً ثانياً لهم اليوم، فإن مركزهم التجاري بجاوه أشدّ ثبوتاً وأقوى رسوخاً منه بحضرموت، واتسع نطاق ثروتهم اتساعاً ماكانوا يحلمون به من قبل ونزوحهم من الوطن يزداد بكثرة على عمر الليالي والأيام، وقد بلغ عددهم اليوم (١٩٣٤م) في إندونيسيا نحو خمسين ألفاً، وقد اشتهروا بالأمانة والوفاء بالعهد وحب المساعدة في المشاريع الخيرية العامة. ولقد أسسوا هناك مدارس لتعليم النشء اللغة العربية والدين، وكانت هذه المدارس عبارة عن كتاتيب ولكن منذ عشرين سنة ترقّت نوعاً، وزاد المقرر في اللغة والدين كثيراً، وأدخلت مبادئ بسيطة جداً من علوم الحساب والجغرافيا والتاريخ، كما أدخل عليها شيء من نظام التعليم العصري، وهي لاتزال ابتدائية، ولقد ساعدت تلك المدارس على نشر اللغة العربية لا بين أبناء العرب فقط، بل وبين أبناء الجاويين أيضاً، فإن أكثر من ثلاثين في المائة من تلاميذ المدارس العربية من الإندونيسيين.

وأكبر المدارس العربية وأكثرها نتائج هي مدرسة جمعية خير العلوية في بتافيا، ومدارس جمعية الإصلاح والإرشاد البالغ عددها نحو أربعين مدرسة في إندونيسيا وفي حضرموت، ولقد ساعدت على نشر مبدأ مدارس الإرشاد الجمعية المحمدية الوطنية التي يبلغ عدد فروعها في أرجاء إندونيسيا أكثر من ثلاثمائة فرع، فإن مبدأ هذه الجمعية كمبدأ جمعية الإرشاد وهو السعي لإزالة البدع والخرافات ونشر تعاليم الإسلام

الصحيحة. ومنذ بضع سنين أسست في مدينة صولسو مدرسة عربية هولندية وهي المدرسة العربية الوحيدة الخاضعة لوزارة المعارف التي يستطيع خريجوها أن يتمموا دراستهم في مدارس الحكومة العالية.

ومن دواعي الأسف أن العرب هناك منقسمون إلى حزبين: علويين وإرشاديين وكل من هذين الحزبين ناغم على الآخر ونافر منه.

ونحن نرجو من الصميم أن لا يطول أمد هذا الشقاق والخلاف، وندعو الله أن يؤلف بين قلوب الحزبين ويجمع كلمتهم ويوحد صفوفهم فإنهم يدينون بدين واحد هو الإسلام، وينتسبون إلى وطن واحد هو حضرموت، ويتكلمون بلغة واحدة هي اللغة العربية، والشرق الإسلامي اليوم في أشد الحاجة إلى التضامن والتعاون وتنشيط العلاقات وتوسيط أواصر الوحدة بين أبنائه وربط عرى الصداقة بينهم برباط متين من التساند والتعاقد والاتحاد والوثام.

تأثير نهضة مصر في الحضارم :

ينظر الحضرميون إلى مصر نظرات احترام وإجلال، ويكتنون لها في قلوبهم من الحب والولاء ما الله به عليم، يسعدهم ما يسعد مصر ويفرحهم ما يفرحها ويؤلمهم ما يؤلمها. وهذا الولاء وهذا الاحترام وهذه العواطف جاءت لسببين هما: رابطة الإسلام بين القطرين، ورفقي الثقافة العربية واتساع نطاقها. فجميع المدارس الحضرمية وخصوصاً المدارس التي في المهجر (إندونيسيا) بدأت تحذو حذو المدارس المصرية في بعض نظمها، وكل الكتب المقرر تدريسها فيها كتب مصرية ومؤلفوها مصريون.

ولقد شعر العرب بحاجتهم الشديدة إلى طلب العلوم الراقية في مصر، فأرسل بعض أعضاء جمعية الإرشاد في سنة ١٩٣٠م بعثة علمية أعضاؤها عشرة ليتعلموا في الأزهر الشريف ودار العلوم وفي المدارس الثانوية وفي الجامعة المصرية، ولاشك أنهم بعد أن ينالوا حظهم من العلم ينشرون ما تعلموه، وبذلك يزداد في الحضارم فضل مصر والمصريين.

أما الصحف المصرية فجميعها يقرؤها الحضارم وخصوصاً الذين في المهجر، وأكثر المجلات المصرية انتشاراً وأعظمها نفعا هي "الفتح" و"النار"، وهنا يجب علينا أن نذكر أن مجلة المنار من أعظم الأسباب التي هيأت أفكار العرب لقبول دعوة جمعية الإصلاح والإرشاد. ومن أكبر الوسائل التي ساعدت جمعية الإرشاد على إزالة البدع والخرافات، ففي قلوب الحضارم لصاحب المنار العلامة السيد محمد رشيد رضا فضل لن يبدي، ولشوقي وحافظ والمنفلوطي فضل عظيم في تشييف عقول الحضرميين وتقوية ملكة الشعر والنثر فيهم.

أرجو أني أدبت بعض الواجب في ذكر أحوال إخوانكم الحضرميين وجزء من وطنهم حضرموت، وهو جزء من وطنكم لأن الإسلام يعتبر البلاد الإسلامية وطناً للمسلم مهما اختلفت المشارب وتنوعت المبادئ وتباعدت الديار.

حضرموت من الناحية الاقتصادية^(١)

بقلم : الأستاذ علي أحمد باكثير^(٢)

يعتقد كثير من الناس أن حضرموت هي الجزء الفقير من البلاد العربية الذي لا يصلح للاستيطان أو الاستقرار، ولذلك نزح عنه أهله وتفرقوا في شتى بلدان العالم حيث تتوفر وسائل المعيشة وطرق الحياة. ومثل هؤلاء الناس لا نستطيع أن نحاسبهم على ما جهلوه عن المركز الاقتصادي لهذه البلاد السعيدة؛ لأن الذي أهمل عليهم هذه العقيدة كان غياب الوعي بحقيقة الثروة الاقتصادية لهذه البلاد.

(١) نشر في كتيب مستقل باسم "ابن الأحقاف" صدر في القاهرة سنة ١٩٤٩م.

(٢) علي أحمد باكثير (١٣٢٨/١٣٨٩هـ - ١٩١٠/١٩٦٩م) أديب، وشاعر، وكاتب مسرحي، ولد بمدينة سورابايا (إندونيسيا) وتلقى بداية تعليمه عا في مدرسة الإرشاد الحضرمية. وفي سنة ١٣٣٨هـ جاء بمعية والده إلى سيون (حضرموت) حيث تابع دراسته أولاً على يد عمه الشيخ محمد بن محمد باكثير ثم في مدرسة النهضة بسيون، وكان من أبرز طلبتها، وقال أول قصيدة له وهو طالب بهذه المدرسة سنة ١٣٤٢هـ وفي سنة ١٣٤٤هـ تولى إدارة مدرسة النهضة في سيون، وفي سنة ١٣٤٩هـ (أول شعبان) أصدر في سيون مجلة "التهذيب" الشهرية، وفي سنة ١٣٥١هـ غادر حضرموت بعد وفاة زوجته الأولى إلى عدن ومنها إلى الحجاز فمصر حيث استقر به المقام سنة ١٣٥٢هـ، وكان أحد أعمدة المسرح العربي بمصر ومن أكثر المساهمين في إعلاء صرح الحياة الفكرية في العالم العربي في عصره. بدأ حياته في مصر شاعراً ثم كاتباً مسرحياً، وكتب خمس روايات تاريخية أصبح بها علماً للرواية العربية التاريخية الإسلامية، التمس فيها حوادث من التاريخ الإسلامي، وله أكثر من ستين مسرحية شعرية ونثرية، لم يصدر له برزاع شعر في حياته، وقد عاد إلى وطنه الأصلي بعد استقلاله في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م، ثم سافر إلى مصر حيث توفي بالقاهرة في أول رمضان سنة ١٣٨٩هـ/ الموافق ١٠ نوفمبر ١٩٦٩م. (م . ب . ح)

وليس هناك من ينكر معالم الحضارة الخالدة والمدنية الزاهية التي سطع نورها في غضون التاريخ في الركن الجنوبي من الجزيرة العربية، فأضواء بطاحتها وهضابها ردت من الزمن بأبهى ما في المدينة من مفاخر وأزهى ما فيها من حسن وفن وجمال.

لقد تعاقبت على الركن الجنوبي من الجزيرة سلسلة من المدن الخالدة، أولها مدينة المعينين ثم تلتها مدينة السبئين التي أشاد القرآن الكريم بذكر ملكتها الحسناء (بليقيس)، فقحطان فالحميريين، وشهدت حضرموت في غضون هذه الفترة الزاهية عهداً سعيداً وحياة زاخرة بمعالم الفن والجمال خلقتها لها الأيام بفضل ما بقي على تربتها الطاهرة من آثار ومعالم خالدة.

ولسنا بصدد التذليل على صحة قيام هذه المدن في هذا الركن من الجزيرة، فإن قارئنا الكريم في غنى عن هذا التذليل؛ لكثرة ما كتب وألف عنها في كثير من كتب التاريخ القديمة منها والحديثة، ولكثرة آثارها المعروضة في المتاحف العالمية، وإن ما نقصده بهذه المقدمة هو الرد على من افتى على هذه البلاد جهلاً منه فرماها بالفقر والجذب والسقط. فنقول لمن اعتقد بهذا الرأي: على أي أساس تؤمن بقيام هذه المدن الخالدة في هذا الركن من الأرض إذا كان كما تعتقد فقيراً لا يحتوى على شيء من العوامل الاقتصادية والثروة المادية التي تقوم عليها أركان الحضارة والمدن الخالدة؟

هذا ما أخذناه على أنفسنا أن نشرحه في هذه الرسالة المختصرة وأن نوضحه بطريقة نأمل أن تظهر آثارها الطيبة في العقول المخيم عليها ظلام الجهل بالأحوال الاقتصادية لهذه البلاد السعيدة، والله المستعان.

جغرافية حضرموت الزراعية :

نريد أن نضع أمام القارئ الكريم صورة لجغرافية حضرموت من حيث الموقع والسطح والمناخ، يستعين بها على تلمس العوامل الطبيعية التي جعلت لهذه البلاد قيمة اقتصادية ثمينة.

تقع حضرموت في الجزء الجنوبي من البلاد العربية، تحده من الجنوب بالبحر العربي، وشمالاً بصحراء الأحقاف والربع الخالي، وشرقاً بعمان، وغرباً باليمن. أما السطح فهو عبارة عن سلاسل جبلية تمتد وتفرع من جبال الساحل الجنوبية إلى الداخل وتتغلغل نحو الشمال ثم تنحدر نحو الجنوب مرة ثانية على شكل قوس أو حدود حصان، وتضم هذه السلاسل أودية تختلف في العرض والمساحة وتتجمع فيها مياه الأمطار المنحدرة من سفوح الجبال. وتربة هذه الأودية مشبعة بالأملاح المعدنية التي تذوب في بطن مياه الأمطار المنحدرة من الجبال فتكسب تربة الأرض خصوبة وحيوية. وتدرج هذه الجبال في الارتفاع من الجنوب إلى الشمال، بمعنى أن درجة الارتفاع تكون شديدة في الشمال ثم تدرج في الانخفاض إلى الجنوب. ولذا ترى السيول تتجه في سيرها من الشمال إلى الجنوب حيث تتخزن في بطون الوديان. ولهذا السبب نجد أن الجزء الخصب من حضرموت يقع في الأماكن الجنوبية كوادى حضرموت مثلاً، وهو من

أوسع الوديان وأكثرها زراعة حيث تقوم فيه المزارع وحقول النخيل وتنتشر على جوانبه المدن والقرى، ومن أشهر مدنه: القَطْنُ وشبام وسيون (عاصمة الدولة الكثيرة) وتريم وهي أكبر مدينة في حضرموت.

ويعتمد الفلاح في زراعة أرضه على الآبار الإرتوازية، ومياه الآبار في هذا الوادي قريبة من سطح الأرض للأسباب الطبيعية التي قدمناها غير أن الطريقة التي يتبعها الفلاح في استغلال هذه الآبار طريقة قديمة غير مجدية أو بعبارة أخرى لا تؤدي الخدمة المطلوبة، وهي في الوقت نفسه مضيئة تستنفد طاقة الفلاح والحيوان، أما كونها غير مجدية فلأن كمية المياه التي ترفع من الآبار بهذه الطريقة قليلة جداً لا تكفي لري مساحات كبيرة من الأرض على الرغم من اتساع البقاع الصالحة للزراعة زيادة على ما تستهلكه من قوة الحيوان والفلاح، ولذلك نرى الحيوانات كالبقر والحمر والجمال التي تستخدم في نزع المياه هزيلة وضعيفة البنية، وتكون معرضة للأمراض التي تسبب في بعض الأحيان موتها وهلاكها فتعطل بذلك وسائل الري وتتبعها خسارة فادحة في الأرض المزروعة.

والطريقة الحسنة لرفع المياه من الآبار هي الطريقة الميكانيكية ونقصد بها الأجهزة الميكانيكية «البومبات»، فهي الطريقة الوحيدة التي يمكن تطبيقها في بعض الأماكن بحضرموت والتي يمكن أن تروي أكبر ما يمكن من المساحات الواسعة، فتتسع بذلك دائرة المحاصيل الزراعية وتكثر الغلات وينشط الإنتاج الزراعي.

والظاهرة الطبيعية البارزة في التكوين الجبلي لحضرموت تساعدنا على فهم طريقة أخرى للري أكثر نفعاً من الطرق السالفة وهي نظرية السدود، وكان آباؤنا القدماء قد سبقونا إليها فاستفادوا من طبيعة بلادهم في تخزين المياه وراء جدران السدود وتركوا لنا آثاراً من بقايا السدود التي شيدها في البقاع والوديان ويمكن تلخيص نظرية السدود بما يأتي:

اتجاه الجبال من الجنوب إلى الشمال ثم انحدارها على شكل قوس يجعل المسافة في هذه النقطة بين الجبال ضيقة إلى حد ما، وفي مثل هذه النقطة الضيقة يمكن أن تشيد السدود والحواجر المتبعة لحجز مياه السيول، وتكون لهذه السدود فتحات وأبواب هندسية تفتح وقت الحاجة، وتتصل بفتحات السدود قنوات ومجارٍ تتفرع في بطن الوادي لري الحقول والأراضي المزروعة.

وتوجد في بعض الأماكن أحواض طبيعية كبيرة الاتساع تخزن فيها مياه الأمطار تسمى «القلوت» وتمكث زمناً طويلاً، ولكنها لا تلبث أن تجف وتنشف بعملية التبخر، وقد تتولد فيها بركات بعض الحشرات الفتاكة كالبعوض الذي يحمل ميكروب الملاريا. وهذه الأحواض يمكن استغلالها ورنع مياهها بواسطة الآلات الرافعة للمياه أو الشادوف وتحويلها إلى مجارٍ وقنوات تُروى بها الأراضي المزروعة. غير أن هذه الأحواض قد توجد في مناطق جبلية صخرية بعيدة عن الأراضي الزراعية، الأمر الذي يجعل استخدامها ضيق الفائدة. أما ما كان منها قريباً من الأراضي الزراعية فعن الممكن استخدامها إلى درجة تؤدي المنفعة القصوى من الري.

الأهوار: لا توجد بحضرموت أنهار تستمد مياهها من منابع غزيرة المياه وذلك الآتي:

١ - التكوين الطبيعي للجبال الصخرية الذي يتعذر معه تجمع المياه في بطن اجال لصغر حجم المسام في الصخور، الأمر الذي لا يسمح للمياه أن تسرب إلى الفجوات الباطنية.

٢ - قلة الأمطار، وعلى الرغم من هذا فإنه توجد في بعض الأماكن عيون تتغذى منها المياه الغزيرة التي يستغلها الأهالي في ري مزارعهم وراشيتهم. غير أن استغلال هذه المياه لم يصل إلى الدرجة المطلوبة؛ لأن كمية المياه متوفرة والكمية المستهلكة منها قليلة جداً لضيق النطاق الزراعي الذي يقوم به الفلاح في تلك الجهات، ويرجع هذا إما إلى قلة الأراضي القابلة للزراعة، أو إلى عدم وجود الأموال الكافية لاستغلال أكبر ما يمكن من لأراضي البور. وأحسن جهة تستغل مياه العيون هي غيل باوزير - بالقرب من المكلا - حيث تقوم فيه زراعة التبغ وبعض الفواكه كالموز وزراعة الغلات.

نهر ميفع: يقع هذا النهر في الحدود الغربية من حضرموت في واد حجر ويطلق عليه سكان هذه المنطقة (الواد)، وأشار البستاني صاحب دائرة المعارف أن فون ريد - سائح ألماني - زار هذه المنطقة سنة ١٨٤٣م وذكر أن أكثر الأراضي محروثة ويوجد نهر صغير قد يكون أحياناً فائضاً إلا أنه كثيراً ما يجف، وفي سنة ١٨٧٠م أتى القسم الغربي من حضرموت القبطان ميلس من الجيش الإنجليزي مع وزير مترنج السائح الألماني وذكر

أنه على مسافة ١٠ أميال في الداخل وعلى الأراضي العالية يوجد حجر الإتراسيت وآثار من النحاس، ثم تكلمنا عن وادي ميفع «ميفعه» بأنه واقع في أراضٍ رملية كلسية خصبة جداً. وأشار الأستاذ صلاح البكري في كتابه «تاريخ حضرموت السياسي» إلى وجود هذا النهر، وهو جارٍ طول أيام السنة ويقع في واد حجر، ويمتد هذا النهر من المنبع إلى المصب مسافة ٢٥ ميلاً ويطلق عليه نهر ميفع، وأشار أيضاً الأستاذ البكري إلى أن الأرض المحيطة بهذا النهر خصبة غير أنها خالية من الزراعة وتقوم في بعض المناطق من ضفتيه بساتين النخيل، وسكان هذا الوادي لا يميلون إلى الزراعة والاستقرار؛ لتفشي بعض الأمراض الناتجة من ركود المياه في بعض المناطق من النهر في أيام الجفاف أو أيام الفيضان.

والناحية التي تحتاج إلى إصلاح وإرشاد في النشاط الزراعي في حضرموت هي الناحية الفنية والمالية. فالناحية الفنية تحتاج إلى إصلاح وإرشاد وتوجيه وقد سبق أن شرحنا بعض الأخطاء الفنية التي يتبعها الفلاح الحضرمي في طرق الري، وبيننا الطرق السليمة التي تضمن له النجاح في ري أرضه، وأهمها إنشاء السدود، وهناك أخطاء أخرى يجب أن نشير إليها، منها عملية حرث الأرض وتسويتها وبذر البذور وغيرها.

يسلك الفلاح الحضرمي في عملية حرث الأرض وتسويتها وبذر البذور طرقاً قديمة تقلل من المحصول وتفسد عليه الغلة ويستحسن أن يأخذ بالطرق الحديثة التي هيهاها العلم الحديث. وأهم ما في هذه الناحية التي يجب أن نشير إليه هو ضعف مدارك الفلاح وضيق نطاق معرفته بأنواع

المحاصيل الزراعية التي يمكن استغلالها وزراعتها بكمية وافرة في حضرموت كالفطن مثلاً فإن هذا النوع من المحاصيل لا وجود له البتة على الرغم من استعداد الأرض لنموه وزراعته على نطاق واسع وبدرجة جيدة. وقد أخذت عينة من بذور الفطن المزروع بقلعة في بعض المناطق بحضرموت إلى المعهد الزراعي بلندن لفحصها، وقد أظهرت النتيجة أن هذه البذور مشبعة بالمواد الزيتية ويعد قطنها من أجود أصناف القطن، وهو يقرب من فصيلة القطن المصري الذي تقوم عليه صناعة المنسوجات القطنية في مصانع ليفربول ومانشستر بإنجلترا.

وهناك ثروة زراعية ذات قيمة اقتصادية كبيرة أهملها الفلاح الحضرمي وهي تربية الحيوانات ذات الألبان والصوف. وتدر هذه الثروة أرباحاً عظيمة للبلدان التي تعتنى بها، وتقوم عليها تجارة رابحة في الأسواق العالمية، وقد برزت في هذه التجارة أمريكا وأستراليا. وإذا بحثنا عن العوامل الطبيعية لقيام هذه الثروة نجد أنها متوفرة في حضرموت بدرجة مقبولة؛ وذلك لأننا نجد سفوح الجبال ويطون الوديان مكتسية بالأعشاب والنباتات الصالحة لرعي الأغنام والأبقار والإبل، وسكان الجبال والصحراء «البادية» يستغلون هذه المراعي إلى درجة محدودة، وتدعوهم هذه الحالة للتنقل من مكان لآخر حيث تتوفر فيه المراعي لمواشيهم وإبلهم، وهم يملؤون أسواق المدن بقطع أغنامهم وإبلهم لعرضها للبيع.

الثروة المعدنية :

يتكون الجزء الأعظم من سطح حضرموت من جبال صخرية تكونت

في العصور الجيولوجية القديمة، وليس لدينا من المعلومات الكافية القائمة على دراسة واسعة في الناحية الجيولوجية لحضرموت والتي يمكن أن نتمتع عليها في بحثنا في هذا الصدد، اللهم إلا نبذ صغيرة تجدها في مؤلفات بعض المستشرقين الأوربيين الذين ارتادوا بعض الجهات بحضرموت مثل فان دن مولن Van den Moulén في كتابه «حضرموت Hadramout» وفريا ستارك في كتابها The Southern gates of Arabia وجون فلسبي في كتابه Sheaba,s daughters وغيرهم.

ونشر الأستاذ صلاح البكري في مقدمة كتابه الأنف الذكر تقريراً ضافياً للأستاذ لينتل الذي استقدمه السلطان عمر القعيطي من مصر ليقوم بدراسة جيولوجية للأجزاء الساحلية القريبة من عاصمة ملكه - المكلا - ولذلك سمي تقريره «جيولوجيا المكلا» Geology of Makalla غير أن هذا البحث كان في منطقة محدودة، لا يمكن أن نتخذ منه أساساً للكلام على الحالة الجيولوجية العامة للقطر كله. وعلى كل حال فإن الأستاذ لينتل أرشدنا إلى وجود بعض المعادن الثمينة كالذهب والنمخ في المنطقة الساحلية، وإن كانت الكمية قليلة حسب تقديره الشخصي، ونتمنى أن تقوم دراسات واسعة النطاق في كل الأنحاء من حضرموت للبحث عن الأراضي الغنية بالمعادن الثمينة.

أشار جون فلسبي الملقب (الحاج عبدالله فلسبي) في كتابه Sheabs,s daughters إلى قريات الملح في شبوه، وقال إن كمية الملح موجودة بوفرة في هذه المنطقة، ويحمل منه البدو على ظهور جمالهم أكياساً ويبيعونه في

أسواق المدن بحضرموت. وإذا كان هذا صحيحاً فإنه يمكننا أن نستنج وجود أملاح معدنية أخرى في تلك المنطقة، وذلك لأنها توجد في الغالب مترسبة في بطن طبقات الأرض مختلطة بأملاح معدنية أخرى، وهذا يرجع إلى عملية التبلور Gaystalisation process التي تحدث في أملاح العناصر المشابهة. فمثلاً ملح الطعام Sodium chloride يتكون من عنصري الصوديوم والكلور، وعنصر الصوديوم داخل مجموعة من العناصر يطلق عليها العناصر القاعدية Alkaly Group، ويدخل في هذه المجموعة أيضاً عنصر البوتاسيوم Potacum الذي يعمل على تبلور ملح الطعام لقوة الشبه بين العنصرين. إذن فمن المحتمل جداً أن توجد أملاح البوتاسيوم بجانب أملاح الصوديوم، مثل فوسفات البوتاسيوم وفوسفات الصودا اللذين تقوم عليهما تجارة شيلي بأمريكا الجنوبية التي تستخرج هذه الأملاح بكمية وافرة وتستخدم في السماد الطبيعي للأرض الزراعية وتمون بها كثير من البلدان الزراعية في العالم. ولئن عجز جيلنا الحاضر عن استخراج الثروة المعدنية لهذه البلاد، فإن الأمل معقود على الأجيال القادمة أن تقوم بتفجير بنايغ الثروة الوطنية وتميיתהا.

التجارة :

يقوم النشاط التجاري في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام على عاملين أساسيين هما: طرق المواصلات، والمنتجات الوطنية سواء كانت صناعية أو زراعية. وكانت وسائل النقل وطرق المواصلات في ذلك الوقت برية أكثر منها بحرية؛ لعدم اطمئنان الناس على أرواحهم وأموالهم في

نقلها عن طريق البحر، فكانت وسائل النقل البري هي الوسائل الوحيدة لربط أجزاء العالم المتمدن بعضها ببعض. والأداة التي تستخدم في النقل هي الحيوان كالجمال والحمير، ولاشك أن للحيوان طاقة محدودة في السير وحمل الأثقال، فهو - والحالة هذه - يحتاج إلى الراحة في فترات معلومة حتى يستطيع أن يجدد قواه ويستعيد نشاطه من وقت لآخر. وكانت الجزيرة العربية في ذلك الوقت حركة نقل مستمرة تصل بين الأجزاء المتحضرة لموقعها الجغرافي المتوسط بين البلدان المتمدنة، فهي تصل بين الشام وبلاد الفرس في الشمال، وبين الشام والهند من الجنوب، فكانت القوافل تقوم من جنوب الجزيرة إلى شمالها محملة بأصناف البضائع والسلع التي كانت ترد من الهند. فالمدن التي تقع على خطوط هذه المواصلات والقوافل يكون نصيبها وافرأ من النشاط التجاري، فتقام فيها الأسواق التجارية وتعرض فيها أنواع السلع وأصناف البضائع. وكانت حضرموت لموقعها الجغرافي أقرب جزء من الجزيرة العربية - بعد عمان - إلى قارة الهند، فكانت السفن التي تقوم من سواحل الهند محملة بشتى أصناف السلع تقطع أقرب مسافة من المحيط الهندي لتصل إلى البر سليمة كاملة، وعليه فكانت البضائع الهندية أول ما تمر في طريقها إلى الشام تمر بالموانئ الواقعة على ساحل حضرموت، ثم تحمل على ظهور الإبل إلى اليمن فالحجاز ثم إلى الشام. ولقد نشطت الحركة التجارية في ذلك العصر في المدن الساحلية - كالشحر - نشاطاً تحدث عنه كثير من الكتاب والمؤلفين.

أما المدن الداخلية فلا تقل نشاطاً عن المدن الساحلية وخصوصاً ما يليها
مها على خط المواصلات وطريقها، ولقد أشاد بعض الشعراء في العصر
الجاهلي بذكر بعض هذه المدن لما تمتاز به من ذكريات جميلة حافلة بالسمر
وقول الشعر، كمدينة دمون ومدينة عندل اللتين ذكرهما امرئ القيس
بقوله:

كأنني لمرأسر دمون مرة ولرأشهد الغارات يوماً بعندل
وقامت فاريا ستارك بزيارة هاتين المدينتين جهة وادي الكسر وذكر
في كتابها الأنف الذكر أنهما يقعان في وادي الكسر. وكانت هاتان
المدينتان واقعتين في ملتقى خطوط المواصلات وطرق القوافل التي تتجه في
طريقها إلى اليمن فالحجاز ثم إلى الشام.

أما العامل الثاني وهو المنتجات الوطنية فقد قامت عليه تجارة لا تقل
أهمية عن العامل الأول فكان مصدر ثروة عظيمة وعاملاً قوياً في حياة
التجارة ونشاطها. ونعني بهذه التجارة تجارة البخور. ولئن كان الإنسان في
عصرنا الحاضر يميل إلى الروائح العطرية ليشبع بها جزءاً من حاجيات
الكمالية وليتمتع بقسط من الرفاهة الحديثة، فإن الإنسان القديم يجد في
بخور السند والصمغ ما يقوم بإشباع حاجته من هذه الناحية ويكمل به
مظهره من مظاهر مدنيته وحضارته الغابرة، وقد رزق الله حضرموت
بالمصادر الطبيعية لهذا المحصول فكانت تمون به سكان الشام وبلاد الفرس
والهند، وكانت المدن الساحلية تمتاز بهذه التجارة وخصوصاً ظفار؛ وذلك
لأن أشجار البخور تكثر في الأجزاء القريبة من الساحل.

ويستخرج البخور والأصماغ من أشجار تتحمل الجفاف والقيظ أيام
الصف، وتتفرع أغصانها من جذع مستدير يتراوح ارتفاعه من متر ونصف
إلى مترين، وعندما تمتلئ خلايا الجذع بالصمغ تفتتح قشرته الخارجية على
شكل شقوق مستطيلة يسيل منها سائل لبني القوام لزج هو الصمغ،
ويتجمع الصمغ تحت الجذع ويكون مختلطاً ببعض التراب والحصى. وفي
بعض الجهات يجنى الصمغ بطريقة فنية تشبه طريقة جمع صمغ المطاط،
وذلك عندما تقوم النساء بشريط الجذوع ويعملن قنوات حلزونية حول
الجذع يسيل منها الصمغ ويتجمع في علب صغيرة توضع تحت الجذع أو
تكون معلقة فيه.

وقبل أن ندخل في الكلام عن التجارة بحضرموت في الوقت الحاضر
يحسن بنا أن نقدم للقارئ الكريم كلمة عن الحركة الاقتصادية العالمية
وتطورها.

تقوم اليوم في العالم نهضة تجارية وتنافس اقتصادي عظيم المدى
تنصارع من أجله الدول والشعوب. وأساس هذه النهضة الاقتصادية هو
الرقى الصناعي المطرد، وقد أدى اتساع نطاق الصناعة إلى اتساع حاجة
الدول إلى المواد الأولية التي تقوم عليها الصناعة، فنشأت لذلك روابط
دولية تتمثل في معاهدات تجارية تضمن لها التبادل في المنافع والمصالح
المشتركة. ونشطت النهضة الصناعية في أوروبا في القرن الثامن عشر،
وكانت الصناعة محدودة النطاق أي أنها كانت للدول الكبرى المعروفة في
ذلك الوقت كإنجلترا وأسبانيا وإيطاليا، فكانت هذه الدول تمون أجزاء

القارة الأوربية الراكدة التي لم تشترك بعد في هذه النهضة لعدم استعمالها للدخول في الدور الصناعي، غير أن هذه الدول ما فتئت أن لحقت بزميلاتها من الدول الصناعية وأصبحت تنتج ما تحتاجه لنفسها. لذلك فكر رجال الدول الصناعية الكبرى في إيجاد أسواق لتوزيع منتجاتها وسلمها المصنوعة، وفكروا في البحث أيضاً عن مصادر غنية بالمواد الأولية التي تقوم عليها مصانعهم ومعاملهم. فكانت البعث تتراد البحار وتجوب أطراف المحيطات للبحث عن الجزر والمناطق الأرضية التي لم تدخلها عوامل المدنية والحضارة، ومن هنا نشأت فكرة الاستعمار. فالجهات التي تقع على طريق هذه البعث تكون غنيمة سائغة للاستعمار، والقيمة الاقتصادية التي تدفع الدول الاستعمارية إلى احتلال الأراضي والمستعمرات تقوم على أساسين اثنين هما: اتساع أسواقها لامتناس أكبر ما يمكن من السلع والمنتجات الصناعية، وهذا الأساس يقوم على كثرة السكان وما في هذه الأراضي من مواد أولية لتموين الصناعة بأوروبا. والأساس الثاني هو المركز الإستراتيجي للمستعمرات من حيث موقعها الجغرافي وصلاحته لقيام حماية طرق المواصلات الدولية كمضيق عدن وقناة السويس مثلاً بالنسبة للإمبراطورية البريطانية، فهذه العوامل الأساسية خلقت لأكثر جهات العالم - التي لم يكن لها وجود فيما مضى - قيمة اقتصادية ثمينة تقوم عليها نهضتها وحضارتها الحاضرة.

وكانت حضرموت تتمتع بمركز جغرافي له أهميته في المواصلات التجارية القديمة بين الهند والشام - كما سبق أن شرحنا - وسبق أن قلنا إن

المواصلات البحرية كانت غير مأمونة؛ لكثرة الأخطار على السفن الشراعية التي لا تتحمل صدمات الأمواج وعبث العواصف والرياح، غير أن طرق البحر أصبحت اليوم غير مرهوبة، وقد زال خطرهما بعد اختراع الأجهزة البخارية الحديثة التي تستعمل في تسيير السفن واليواخر الضخمة، ولذلك خسرت حضرموت مركزها الاقتصادي وحلت محلها عدن في الوقت الحاضر. غير أنني متفائل أن يعود لهذه البلاد مجدها الاقتصادي كنتيجة من نتائج الحركة الاقتصادية المعدنية التي بدأنا نلمس قوتها الهائلة في قلب الجزيرة، وأعني بها ثروة البترول في المملكة العربية السعودية، وهي منطقة قريبة من حضرموت بل أرضها متصلة بمناطق حضرموت المتاخمة لها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى حركة النقل التجاري التي تنمو بازدياد مستمر في المحيط الهندي، وإذا كانت أهمية الساحل العربي الواقع على البحر الأبيض هي قرب هذا الساحل من معاقل الأسطول البريطاني والأمريكي التجاري في هذا البحر، فإن الساحل الجنوبي للجزيرة العربية هو الحلقة التي تتصل بسلسلة المواصلات البحرية في المحيط الهندي وأبرز نشاط هذه الحلقة مدينة عدن. وتحتكر إنجلترا خطوط المواصلات في هذا الجزء.

وكانت إيطاليا إبان سيادتها قد شنت غارة شعواء لمنافسة إنجلترا في السنين الأوائل التي سبقت الحرب الأخيرة، وشرعت تنافسها في الاستيلاء على منفذ يمكنها من الوصول إلى المحيط الهندي عن طريق الساحل الجنوبي للجزيرة العربية. فبشت دعائها وسماستها في حضرموت وعدن لئلا ينفذها على ميناء في حضرموت لتأسيس قاعدة حربية لها. ولما

سعت بريطانيا بهذا الخطر بادرت إلى بسط حمايتها على حضرموت بطريقة مباشرة وعقدت بينها وبين سلاطينها معاهدة وضعت حضرموت تحت الحماية البريطانية التابعة لعدن، وبعثت مستشاراً يمثلها لدى سلاطين حضرموت هو المستر إنجرامس. وفي أثناء الحرب الأخيرة (العالمية الثانية) ظهرت لبريطانيا قيمة حضرموت من الناحية الحربية نظراً لقربها من الهند، وكان اليابانيون متغلغلين في شمال الهند وينذرون السلطان البريطاني من وقت لآخر بالاضمحلال، فبادرت بريطانيا لتعزيز الساحل الجنوبي بقوات تمكنها من صد اليابانيين عن مواصلة زحفهم إلى الشرق الأدنى إذا ما فشلت قوات الحلفاء عن صددهم في الهند، ولبحفظوا بقواتهم المنهزمة بخط الرجعة وتركيزها في الساحل الجنوبي من الجزيرة، لذلك أنشأوا عدة مطارات بين المكلا والشحر، وأدخلوا بعض التحسينات على الموانئ ليتمكنهم استخدامها لمصالح السفن الحربية.

السكان وهجرتهم إلى الخارج :

لم يتم إحصاء رسمي لعدد سكان حضرموت على وجه الدقة، غير أنه توجد نبذة مبنية على التخمين والتقريب، وعلى كل فقي استطاعتنا أن نأخذ أقرب رقم إلى وجه الصحة وهو لا يتجاوز ٥٠٠ ألف نسمة (سنة ١٩٤٩م).

ويرجع سكان حضرموت إلى شعوب وأمم عريقة في القدم استوطنت هذا الجزء من الجزيرة العربية منذ القرون الأولى للتاريخ، ومن هذه الشعوب تفرعت شعوب وسكان بعض البلدان الشمالية للجزيرة كما دل

على ذلك البحث الحديث لبعض الكتاب الغربيين الذين ارتادوا هذه البقاع، فالبابليون الذين سكنوا العراق أحقاباً من الزمن وأنشأوا فيها حضارة خالدة كانوا من القبائل المتدينة التي تقطن فيما مضى جنوب الجزيرة ثم نزحت عنها إلى الشمال لأسباب يطول شرحها، والآثار التي تدل على ذلك كثيرة، منها العملة، فقد عثر بعض الرحالة الأجانب الذين ارتادوا حضرموت على نقود معدنية لا تختلف عن النقود البابلية سواء من حيث الشكل أو النقش أو المعدن. أما قبائل كندة وغيرها من القبائل اليمنية التي هاجرت إلى نجد والحجاز فأمر هجرتها لا يحتمل الشك والريبة في صحته لما دونته كتب التاريخ ودلت عليه البحوث القديمة والحديثة.

والذي نريد أن يخرج به القارئ من هذا البحث هو أن المناطق الجنوبية للجزيرة العربية كانت تمون الأطراف الشمالية للجزيرة بثروة من السكان كان لها أثر ملموس في تاريخ نهضتها ومدنيتها الغابرة.

وقد بدأت هجرة سكان حضرموت منذ العهود القديمة ونشطت في العصور الإسلامية ولا يزال بابها مفتوحاً وفي حركة مستمرة إلى الآن. فالهجاز وشرق أفريقيا والهند وإندونيسيا تزخر مدنها وعواصمها بأبناء حضرموت المهاجرين الذين ويمتازون بنشاطهم وتفوقهم في الأعمال التجارية، واستيلائهم على معاقل الأسواق التجارية في تلك البلدان. ولا غرابة إذا قلنا أنهم (الدينامو) التجاري الذي يمد الحركة التجارية في هذه البلدان بنشاط منقطع النظير. وقد استفادت بلدان المهاجر من هجرة الحضارم إليها بفضل ما جلبوا عليه من نشاط وحبهم للعمل ومساهمتهم

في إنعاش الحركة الاقتصادية إلى درجة يقصر عن الوصول إليها أبناء البلاد أنفسهم، علاوة على ما اشتهروا به من حسن السلوك واستقامة الخلق والأمانة في المعاملة وعزة النفس، الأمر الذي خلق في نفوس مواطنيهم احترامهم وتقديرهم والإعجاب بهم، وقد يرجع تفوق أبناء حضرموت في التجارة إلى عامل تاريخي وهو أنهم ورثوا هذا النشاط والمهنة التجارية عن أسلافهم منذ القدم، فقد أشرنا سابقاً إلى أن حضرموت كانت معقلاً تجارياً هاماً لبضائع الهند وحرارته تمول بها بلاد الشام.

وقد ذكر ابن بطوطة في رحلاته إلى الشرق في القرن السادس الهجري مدينة عدن وقال إنها كانت ميدان صراع عنيف في التجارة بين الحضارة والهنود، وكان مرفؤها غاصاً دائماً بالسفن التجارية المحملة بشتى أصناف السلع والبضائع.

وفي القرن الثامن عشر للميلاد اتسع نطاق الهجرة إلى أطراف المحيط الهندي، وكانت البعوث الأوروبية التي تأتي إلى الشرق عن طريق الرجاء الصالح تستعين ببعض البحارة العرب المرابطين بسفنهم الشراعية على ضفة الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، فنشطت بذلك هجرة الحضارة إلى الشرق الأقصى حيث ترقد في ركن هادئ من المحيط الهندي جزائر إندونيسيا الجميلة في حلة زاهية من جمال الطبيعة تحتضن في حجرها خزائن النعيم وخيرات الثروة الباذخة، فلم يمحض على هجرتهم وقت طويل حتى تفجرت ينابيع الثروة من تحت أقدامهم وامتلات جيوبهم وحقائبهم بخزائن المال وأصبحوا يرفلون في حلال من النعيم، فطابت لهم الإقامة

واستعدبوا رحيق الحياة بين ربوع النعيم في الفردوس الخالد. أما هجرة الحضارة إلى الهند وشرق أفريقيا وزنجبار فكانت أسبق من هجرتهم إلى إندونيسيا، وقد نجحوا في أعمالهم التجارية بدرجة لا تقل عن نجاح إخوانهم في إندونيسيا على الرغم من الفروق الكبيرة بين العوامل الاقتصادية والثروة الطبيعية التي تتمتع بها جزائر إندونيسيا وتقل في المهاجر الأخرى.

والذي نلاحظ في تجارتنا بالمهاجر هو النوع البدائي من التجارة أي تجارة القطاعي، فتجارنا يعملون في المهجر كوسطاء بين المنتج والمستهلك. أما تجارة الجملة Wholesale فلا وجود لها بين تجارتنا في المهجر مع أنها تجارة تدر أكبر ربح من تجارة القطاعي Retail وكذلك لا تجد من يتعاطى تجارة الاستيراد والتصدير، Import-Export خصوصاً تجارنا بإندونيسيا إلا عدداً بسيطاً منهم. وأما تجارنا في عدن والحجاز فإن أكبر بيوتاتهم التجارية تقوم بأعمال التصدير والاستيراد (ونقصد بأعمال التصدير هنا عمليات الترنسيت) إلى درجة مرضية.

وقد برز أخيراً في الإنتاج الصناعي للسلع الاستهلاكية Manufacture عدد غير قليل من مهاجريننا بإندونيسيا وطرقوا أبواباً مختلفة في الصناعة الاستهلاكية كصناعة النسيج والزجاج وتعبئة الشاي وغيرها من الصناعات الزراعية، غير أن رؤوس الأموال التي تستخدم في هذا الميدان تكاد تكون ضئيلة ومحدودة لاتمثل الشركات المساهمة التي تقوم على أساس التبرعات من أرباب الأموال والمستثمرين.

التطورات الحديثة.. السياسية والاقتصادية في حضر موت

تخضع حضر موت منذ القرن التاسع عشر لسلاطين يافع وآل كثير، وكانت فترة حكمهم سلسلة من القلاقل والفتن بين قبائل يافع وقبائل آل كثير لا يعدو أن يكون مصدرها النزعة القبلية الجاهلية المحضة في صورة الدفاع أو الذود عن كيان الملك والحكم. وقد أنشأت يافع حكومة عاصمتها المكلا وهي الحكومة القعيطية التي تمت حدودها على موانئ الساحل إلى وادي دوعن في الداخل. أما آل كثير فقد قامت حكومتهم قبل الحكومة القعيطية بقرون ولم يبق لها الآن إلا الجزء الواقع على امتداد وادي حضر موت في الداخل وعاصمتها سيون.

وكان نفوذ الحكومتين لا يتعدى أسوار المدن التي يقيم فيها السلاطين أو من ينوب عنهم من الحكام، أما ما عدا ذلك من الضواحي والجبال والوديان فكان مسرحاً لحوادث القتل والنهب بين أفراد القبائل من حملة السلاح. وكانت عين السياسة البريطانية في عدن تغض بصرها عن هذه المذابح ولا تعيرها التفاتاً على الرغم من وجود التزامات ومعاهدات بينها وبين سلاطين حضر موت فيما يختص بحفظ الأمن والاستقرار بين ربوع الأهالي والسكان؛ وذلك لأنها كانت لا ترى في هذه الحوادث ما يسبب قلقها ويهدد سلامة مواصلاتها المرتبطة بحميتها عدن لبعدها مراكز هذه القلاقل عنها.

وظلت حضر موت على هذه الحالة مدة طويلة حتى سنة ١٩٣٦م حيث بعثت الحكومة البريطانية المستر إنجماس إلى حضر موت ليمثلها لدى الحكومتين القعيطية والكثيرية كضابط سياسي يتعاون مع السلاطين في

إصلاح شؤون الأمن وتنظيم المرافق الإدارية والأمن العام.

وقد لاقى المستر إنجماس صعوبات جمة في سبيل مهمته، كما لاقى مقاومة عنيفة ومعارضة شديدة من أبناء القبائل الذين يستعذبون إراقة الدماء ويستحلون قتل النفوس البريئة. غير أنه استطاع بعد جهد أن يقضي على أسباب الفوضى بما قام به من وسائل العنف والشدة واستخدامه سلاح الطيران في ضرب القبائل النائرة بالقتابل والقذائف المحرقة، فنضعت له القبائل واستسلمت لسلطان القوة وأذعن للعهد الجديد.

وعلى الرغم من نجاح العمليات الإرهابية التي قام بها عمال الحكومة البريطانية لإصلاح حالة الأمن في حضر موت، فإنهم لم يوفقوا في إصلاح الحالة الاقتصادية والاجتماعية والصحة العامة. وقد حاولوا بعد انتهاء العمليات الإرهابية أن يقوموا بتنفيذ بعض المشروعات الاقتصادية ببناء السدود وإقراض الفلاحين وإرشادهم للطرق الزراعية الحديثة وإنشاء خطوط للمواصلات بين الساحل والداخل ولكنهم فشلوا في كل أعمالهم ولم يوفقوا في شيء من ذلك، ويرجع ذلك إلى سوء الإدارة التي تشرف على المرافق العامة وجهلها بفنون الإدارة الصحيحة. للحكومة القعيطية مثلاً تتحكم في الموانئ، وتجيبي الضرائب وتستأثر بحصيلة الجمارك دون أن يكون للحكومة الكثيرية نصيب من ذلك، مع أن أغلب البضائع التي ترد إلى هذه الموانئ ترد باسم تجار الحكومة الكثيرية في الداخل، فليس للحكومة القعيطية - والحالة هذه - حق على هذه البضائع عدا ضريبة الترانسيت كما هو المعتاد، ولكن الحالة خلاف ذلك، فهي تأخذ ضريبة جمركية كاملة على هذه البضائع، وتأخذ الحكومة الكثيرية بدورها ضريبة

الثروة الاقتصادية في حضر موت (١)

للأستاذ أحمد طه السنوسي (٢)

حضر موت بلد عربي معروف بتاريخه القديم الحافل، يقع في جنوب شبه جزيرة العرب، ولقد أدت أحوال البيئة فيه إلى رحيل أهله واستيطانهم ببلاداً بعيدة في الشرق الأقصى، كما دفعت هذه الأحوال الحضارم أيضاً إلى الاشتغال بحرفة التجارة والملاحة وخاصة في مياه المحيط الهندي.

وتتلخص أحوال البيئة بحضر موت في أمرين هما: الجفاف والحرارة، وهذان عاملان هامان من عوامل الجغرافية التي كانت الدافع الأول لهجرة الحضارمة إلى خارج أرضهم ووطنهم، فمنهم من هاجر إلى الهند ومنهم من استقر في إندونيسيا، ولهم في هذا البلد أثر كبير في حياته الأدبية والدينية والاجتماعية والاقتصادية، كما لا ننسى أن جماعات منهم نزحت إلى شرقي أفريقيا وإلى مصر وإلى الأندلس أيضاً.

يقول الأمير شكيب أرسلان في إحدى تعقيباته في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» عن حيدر آباد الدكن: «وهناك جيش عدده ٣٠ ألفاً أكثره عرب من حضر موت» ويذهب في الحديث عن مسألة الحضارمة إلى القول بأنه من المعلوم: «كون أهل حضر موت من أقدم أهل الأرض على الأسفار،

(١) مجلة «الكتاب» عدد نوفمبر ١٩٥٠م، القاهرة.

(٢) أحمد طه السنوسي: ذكر عنه الأستاذ حماد السالمي في كتابه (السعوديون في «الرسالة») أنه من أبناء جنوب جزيرة العرب، ولم تتوفر بين أيدينا معلومات عنه أكثر من ذلك. (م. ب. ح.)

جمركية أخرى بحكم الضرورة لعدم وجود مصدر لإيرادها ودخلها غير هذا المصدر. فترتفع بذلك الأسعار في الداخل ارتفاعاً فاحشاً، الأمر الذي نشأ عنه حدوث مجاعة بين سكان المناطق الداخلية لحضر موت، علاوة على فتور الزراعة وركودها في السنين الأخيرة بسبب قلة الأمطار وجفاف الآبار.

وحاول موظفو بريطانيا في حضر موت معالجة الحالة وإصلاحها، فوضعوا مشروعاً لتوحيد الإدارة وإقامة اتحاد بين الحكومتين Federal يتمثل في إنشاء مجلس تشريعي يمثل أعيان الدولتين، وهيئة تنفيذية يتولاها سلاطين الحكومتين كلي في دائرة نفوذه، غير أن هذا المشروع باء بالفشل؛ لعدم توفر الشروط والعناصر العملية فيه، وافتقاره إلى التمهيدات الأولية لتقوية العلاقة الاقتصادية بين الحكومتين وإزالة الضغائن والأحقاد المترسبة في النفوس من جراء الحوادث والقلاقل القديمة بين الدولتين.

وظهرت أخيراً فكرة مشروع اتحاد من نوع أوسع ترمي إلى توحيد إداري عام لجميع المحميات الواقعة تحت النفوذ البريطاني في الركن الجنوبي للجزيرة العربية. ويدعو لهذه الفكرة عظمة سلطان لحج الأمير علي بن عبدالكريم الفضلي، ونحن لا نستطيع أن نعترض على فكرة هذا المشروع أو نؤيدها في الوقت الحالي (١٩٤٩م) قبل أن ندرس النواحي العملية منه والوضع السياسي والاقتصادي لكل بلاد المحميات وعلاقة بعضها ببعض. غير أننا نتمنى أن يكمل هذا المشروع بالنجاح وأن تتحقق وحدة أبناء الجنوب من سلالة حمير وقحطان ليستعيدوا مجد حضارتهم السالف وعز مدنيتهم الغابرة.

وأن فقر بلادهم مع مضاء عزيمتهم بحملاتهم على جوب الأفاق، وأكثر ما ينشرون في جزائر الجاروي والبحر المحيط، ويذهب صاحب كتاب حضر موت والمستعمرات العربية في الأرخيل الهندي، وهو فان دربرغ، إلى أن الحضارة أرفع شاوا في مدينتهم من تلك الأقطار الشرقية الآسيوية. وقد دعاهم ذلك إلى الاحتفاظ بمكانتهم التي ما زالت ذات مركز مرموق في تلك البلاد. ويقول إن هذه المكانة قد تلاءمت فيها مبادئ خلقية سليمة مع نزعة تجارية ومسحة من الرزانة والنشاط والجرأة التي أملاها على نفوسهم وركزها في أفئدتهم واجب السفر ونزعة الاغتراب.

ولكن الأحوال المناخية القاسية لاتطوح بالثروة الاقتصادية في هذا البلد ذي الثروات المعدنية والزراعية، لذلك وجب أن نعطي فكرة كافية عن هذه النواحي الاقتصادية في هذا القطر الهام في جنوب شبه الجزيرة بل في الشرق العربي بأكمله.

جاء في تقرير كتبه عالم الجيولوجيا الأستاذ أ. هـ. ليتل O.H. Little سماه Geology of Makalla أي (جيولوجيا المكلا) أنه يوجد في حضر موت معادن ثمينة، ذكر منها الذهب والفحم، وذلك في منطقة السواحل الحضرمية. والأستاذ ليتل هذا هو الباحث الذي استقدمه سلطان حضر موت السابق عمر القعيطي من مصر في عام ١٩١٩م، كي يدرس الأجزاء الساحلية القريبة من المكلا عاصمة حضر موت من الناحية الجيولوجية، ولكي يعمل مساحة تفصيلية للمنطقة التي بين المكلا وحجر، وليقوم بالبحث عن المعادن في هذه المنطقة.

ويوجد الملح بكثرة في منطقة شبوه (منطقة البترول الحديثة)، وقد ذهب إلى ذلك السيد جون فليبي في كتابه المسمى Sheaba's daughters، ويستتج أحد أبناء حضر موت من ذلك وجود أملاح معدنية أخرى في تلك المنطقة، ويقول: «وذلك لأن الأملاح المعدنية توجد في الغالب مترسبة في بطن طبقات الأرض مختلطة بأملاح معدنية أخرى، وهذا يرجع إلى عملية التبلور Crystallisation process التي تحدث في أملاح العناصر المشابهة، فمثلاً ملح الطعام Sodium chloride يتكون من عنصري الصوديوم والكلور، وعنصر الصوديوم داخل في مجموعة من العناصر يطلق عليها العناصر القاعدية (Alkaly group) ويدخل في هذه المجموعة أيضاً عنصر البوتاسيوم الذي يعمل على تبلور ملح الطعام لقوة الشبه بين العنصرين، إذن فمن المحتمل جداً أن توجد أملاح البوتاسيوم بجانب أملاح الصوديوم، مثل فوسفات البوتاسيوم وفوسفات الصودا اللذين تقوم عليهما تجارة شيلي بأمريكا الجنوبية التي تستخرج هذه الأملاح بكمية وافرة وتستخدمها في السماد الطبيعي للأرض الزراعية وتمون بها كثيراً من البلدان الزراعية في العالم».

ولقد كشف البترول في «شبوه» في الأيام الأخيرة، وشبوه هذه في حضر موت بلد فقير تقع على خط عرض ١٥,٥ درجة وعلى خط طول ٤٧ درجة، ويذهب المستر هارولد إنجرامس Ingrams في كتابه Arabia and the Isles أي (بلاد العرب والجزائر) إلى أن شبوه لها أهمية محلية خاصة بتجم الفحم الذي يوجد فيها، كما يذهب إلى أن «شباب» قد تغلبت

اهميتها على أهمية شبوه نظراً لركود الحياة في هذه الأخيرة. وأهمية شبوه كانت تتوقف إلى حد بعيد على أهمية التوزيع التجاري، ولكن هذه الأهمية فقدت حينما انتقل مركز التوزيع التجاري إلى طريق البحر، على أننا نجد أن شبوه قد خلعت من الحركة التجارية تماماً في هذه الأيام الحاضرة، ويذهب المستر إنجرامس إلى أن السبب في ترحال الأهالي من شبوه إلى غيرها من البلدان كشبام هو الرمال الغازية ثم لتدهور الحركة الاقتصادية فيها. على أن تاريخ شبوه تاريخ كبير إذا ما علمنا أنها تقع في شرق «أرب» وفيه سد مأرب العجيب الذي يدور حوله محور تاريخ كبير كما يدور حول البلد الذي قام بين ظهرائه. أما من جهة الطريق البرية، فقد كان لشبوه شهرة كبيرة بسبب طريق للقوافل فيها، وهو ذلك الذي ذكرته المس فربا ستارك Miss Freya Stark في بعض كتبها الضخمة التي كتبتها عن حضرموت. فإذا علمنا كل هذا وعلمنا أيضاً أن البلدان والمدن والقرى التي تحف بشبوه فقيرة في أحوالها الاقتصادية والاجتماعية، أدركنا أن شبوه ستكون لها الأهمية الكبرى واليد الطولى في تحويل جزء كبير من جنوب شبه الجزيرة إلى جنة زاهرة بفضل بترولها. كما لانسى أن نذكر أن (شركة شل) قد حصلت منذ ما يربو على عشرة أعوام على امتياز للبحث والتنقيب في حضرموت. وقد استطاع المنقبون أن يكشفوا آباراً للبترول في المنطقة الشرقية التي تقع بين حدود حضرموت القعبيطة وبين بلاد المهرة^(١).

(١) عن مقالة (البترول والشرق العربي) بالعدد الصادر في ١٩ يونيو ١٩٥٠ في (الثقافة) الفراء.

وحضرموت من أكبر البلاد التجارية القديمة، ويذهب المسير جيان Mr. Guillaing في كتابه المسمى Documents sur L. Histoire la Geographie et le Commerce de l'Afrique orientale إلى أن العرب قد أمسكوا بزمام التجارة البحرية منذ قديم الزمان وخاصة في الشرق، ولم تكن توجد غير سفنهم تجوب المحيط الهندي، وهذا على وجه الخصوص فيما بين حضرموت والهند. والهند هذه هي التي لهم فيها جالية لا بأس بها قرب نهر السنند. ويقول الأستاذ جيان: إن الإسكندر المقدوني كان قد بعث بالقائد نبارك لكشف بحر الهند. فوجد في سواحل جدروزيا بعض الآثار الهامة التي دلت على النفوذ العربي، ولاشك أن هذا النفوذ أتى من المدن الحضرمية والأساطيل الحضرمية أيضاً^(١).

ويقول الدكتور عبدالوهاب عزام بك: إن «أهل اليمن وحضرموت والشحرم تجار العرب وأولو السفر والاعتراب منذ العصور الأولى، وهم الذين نشروا اللغة العربية والإسلام في سواحل إفريقيا الشرقية وجزائر بحر العرب، وعربوا كثيراً من أقطارها منذ عصور بعيدة، وكانوا صلة بينها وبين الجزيرة العربية»^(٢).

وتجارة حضرموت كانت في القديم تقوم على أساس المنتجات التي تنتجها، ومنها البخور، وكانت تجارتها رائجة ولها أهمية عظيمة؛ وذلك لأنه إن عدَّ اليوم من الكماليات، فقد كاد يكون في الماضي من

(١) عن كتاب (تاريخ حضرموت السياسي) لصديقنا العلامة الأستاذ صلاح البكري.

(٢) عن كتاب (مهد العرب) للدكتور عبدالوهاب عزام بك، نشر في سلسلة «أقراء».

الضروريات، وقد موّنت حضرموت به أهالي الشام وإيران والهند، والملاحظ أن أشجار البخور في حضرموت توجد في المناطق الساحلية خصوصا في منطقة «ظفار»، كما لا ننسى أن نذكر إلى جوار البخور تجارة الصمغ في حضرموت.

وقد وهن مركز حضرموت الاقتصادي نظراً لارتفاع مركز عدن الجزء الحي في جنوب الجزيرة، وذلك يرجع إلى أن المواصلات البحرية الحضرمية كانت غير مأمونة؛ وذلك للأخطار الموجية ولأخطار العواصف والرياح التي تعرضت لها السفن الشراعية، بيد أن الأمر يختلف اليوم عنه بالأمس بعد أن ابتكرت الأجهزة البخارية الحديثة التي تسير السفن، كما نذهب إلى أن الثروة المعدنية البترولية التي ظهرت في حضرموت سيكون لها أكبر الأثر في رقي التجارة في حضرموت، وفي استرجاع هذا القطر العربي مكانته التجارية القديمة.

أما من الناحية الزراعية فحضر موت تنتج الحنطة والصبر والتمر والتبغ الحمومي وغير ذلك، ولقد جاء في كتاب «تاريخ حضرموت السياسي» في معرض الحديث عن الزراعة في عهد الحميريين أنهم «كانوا يبنون السدود الفخمة لحجز مياه الأمطار، ولها فتحات يخرج منها الماء فينسب في ترع منظمة ويغمر المرتفعات من الأرض والمنخفضات منها، فكانت حضرموت كلها بساتين غناء ومروجاً خضراء وغياضاً فيحاء، فيها الأغراس من الأشجار والرياحين والحنطة والفواكه كالاعناب والخوخ والكمثري والبرقوق والأجاص والتفاح واللوز والجوز والسفرجل والرمان وغير ذلك»

ويقول الأستاذ صلاح البكري في كتابه «في جنوب الجزيرة العربية»: «إن حضرموت مناطق من الأرض واسعة صالحة للاستنبات والزرع، وبعضها خصبة كإقليم ميفع الذي يرويه نهر حجر ومنطقة غيل باوزير ورخبه وجميع الأراضي الواقعة بين الباطنة ودمون حيث الماء قريب من سطح الأرض. والأرض هنا تتكون من الطمي والغرين، ومن السهل استخدام الآلات النازحة للماء».

«ورمال الصحراء في المناطق الساحلية رمال بيضاء تخسوي على مادة الجير، وهي لذلك أقدر احتباساً لمياه الأمطار. وتسرب مياه الأمطار في هذه الرمال ثم تتجمع فوق أول طبقة صماء، ولما كانت الأمطار عذبة وأخف من ماء البحر المالح، فإن هذه المياه تملو المياه التي تسرب من البحر في العادة، غير أنه إذا اشتد السحب منها زادت ملوحتها بسبب تغلب مياه البحر المالح على مياه الأمطار المخزونة».

وأما من الناحية الصناعية، فلدى الحضارمة صناعات أولية سترقى مع الأيام، وفي الأيام السالفة كانت للحميريين مهارة عجيبة في النسيج وخاصة في الشحر التي كانت أكبر مركز لمعامله، كما لهم نفس هذه المهارة في صناعة الحلوى الجميلة وزخرف الأنية وتجهيز الروائع المنعشة وتحضير البخور وصناعة الأثاث، كما عملوا في جني عيدان الدارصيني واللدان، وساهموا بنصيب لا بأس به في جني القرفة وغيرها.

ويهتم التجار الحضارم في المهاجر التي يذهبون إليها بتجارة القطاعي، فلا يتجرون في الجملة ولا يتعاطون تجارة الاستيراد والتصدير إلا في عدن

حيث وصلوا بهذه التجارة إلى ذروة عالية، وقد نجح كثير من الحضارم في الفطر الإندونيسي في الانغمار في الصناعة والإنتاج فيها، فاستطاعوا النجح وصنع الزجاج، كما عبثوا الشاي وغير ذلك من الصناعات وخاصة الزراعة، ولكن مركز الحضارم الاقتصادي في إندونيسيا لم يمانل بعد مركز الأجانب من الأوروبيين في ذلك البلد.

الأسماك في الشواطئ الحضرمية^(١)

للأستاذ علي عبود العلوي^(٢)

تقديم:

لاشك أن وجود الأسماك بكثرة في الشواطئ الحضرمية هو الحافز الأعظم لبعض مفكري الحضارمة في السعي وراء تأسيس شركة تجارية بهجر الحضارمة (جاوة) من غايتها استغلال الثروة الوطنية وتميئتها بإنشاء مصنع لحفظ الأسماك في العلب وتصديرها فيما بعد إلى الخارج.

ولا غرو أن يهتم بالسفر إلى ميناء حضرموت (المكلا) رئيس الشركة السيد علي بن شهاب لدرس ما يقتضيه المشروع ورفع تقرير لأعضاء الشركة. غير أن المشروع أخفق في مسعاه ولا أعرف بالضبط ما هي الأسباب الموجبة لذلك.

وتاريخ هذه الخطوة التفكيرية الأولى يرجع إلى أثناء الحرب الماضية حرب (١٩١٤م) على ما أذكر (في جريدة الأقبال التي كانت تصدر

(١) مجلة الرسالة، الأعداد ٦٨٦، ٦٨٨، ٦٩٠، ٢٦/ أغسطس/ ٩ سبتمبر، ٢٣ سبتمبر ١٩٤٦م، القاهرة.

(٢) علي عبود العلوي: ويدعى علي عبود باعبود ولد وتلقى تعليمه الأولى في بلدة بور بحضرموت، اشتغل بالتجارة وتردد على المهجر الشرقي، وأقام فترة طويلة في مصر وتعلم في الأزهر، له عدة مؤلفات مخطوطة، وربما بعضها مطبوع، كتب في العديد من الصحف والمجلات المصرية، وعاد إلى حضرموت في آخريات سنين حياته وتوفي قبيل الاستقلال أو بعده بقليل، وهذا ما توفر لدينا من معلومات عنه. (م. ب. ح.)

(بريانيا) جاوة - إشارة إلى هذا الخبر، وهي لا تحضرني الآن).

ولئن أخفق هذا المشروع فإنه لم يقض على الفكرة أصلاً. وغاية ما في الأمر أنها تبعث مرة وتختف أخرى حتى دبّ إلى النفوس خير انعقاد مؤتمر الإصلاح الحضرمي المنعقد بسنغافورا في سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م فانبعثت الفكرة مرة أخرى، ولكن في صورة واسعة النطاق. إذ وانقر المؤتمر على تأسيس شركة تجارية حضرية برأس مال كبير من غايتها استغلال الثروة الوطنية، ورشح لهذا القرار لجنة تتألف من أغنياء الحضارة وسرانتهم برئاسة الثري الشهير السيد عبدالرحمن بن شيخ الكاف. غير أن مقررات المؤتمر قضي عليها بجمرة قلم، ولم تكن هي من نصيب بحثنا لنوليها مزيداً من البحث والتعليل والتدليل.

ودليل آخر أضيفه إلى ما سبق أن أشرت إليه، فقد حدثت بعد عودتي إلى الوطن من الكنانة في ١١/٨/١٩٤٢م من رحلتي التي استنفدت من العمر زهاء خمس عشرة سنة أن عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطي معتزم إنشاء حوض كبير لتربية الأسماك والاستفادة منها علمياً.

فمتى يتحف عظمة السلطان شعبه الحضرمي بهذه المكرمة الجليلة التي لم تكن إلا إحدى مكارمه؟ فمسي أن يكون ذلك قريباً.

معجم للأسماك :

واغتنمت فرصة وجودي في (المكلا) للتعرف إلى أبناء الشجر الحضرمي، وقد لقيت منهم تأهيلاً كبيراً، ومن تحدثت معه عن وضع

معجم للأسماك الأستاذ عبدالله الناخبي^(١) ففحش للفكرة وقال: إن نفس هذه الفكرة قد سبق أن أوحى بها إليه عظمة السلطان صالح القعيطي، ومن أجل ذلك فإنه دأب في البحث، وأنه قد كتب مذكرة عن الأسماك تضم زهاء مائتين وخمسين اسماً.

ولا أزال أرجو من الأستاذ الناخبي أن يجد في البحث لسكي يتحف العالم العربي بشمرات أبحاثه.

غير أنني أخشى أن تقعد بالأستاذ الناخبي أعماله المدرسية وشواغله اليومية. فقد اتضح لي أنه طيلة المدة التي قضيتها في حضرموت - وهي ستة وثلاثة أشهر - لم يقدر له أن يواصل البحث الذي سبق أن حدثني عنه بشيء يذكر.

وقبل أن نتجه إلى الغاية المقصودة يجدر بنا الإشارة إلى أن للسيد الشاعر عبدالرحمن بن محمد بن شهاب الدين العلوي المتوفى في حدود سنة ١٢٧هـ قصيدة طويلة ضمنها أسماء الأسماك الموجودة بالشط الحضرمي، ولم تقع هذه القصيدة تحت نظري وإنما حدثت عنها، وهي مشهورة بحضرموت وموجودة منها نسخ في مهجر الحضارة جاوة، ولن تخلو منها مكاتب حضرموت، ولاشك أنها من محفوظات خزنة حفيده السيد الجليل عبدالرحمن بن عبدالله بن شهاب في مدينة تريم (الغناء).

(١) الشيخ عبدالله الناخبي: مؤرخ وباحث وأحد رواد النهضة التعليلية في حضرموت القعيطية، في العقد العاشر من عمره المديد إن شاء الله، يقم حالياً في جدة، وقد اتصلت به فأبلغني أنه أعار الأستاذ عبود العلوي ذلك المعجم الذي أعده ليستفيد منه ولم يتسعه منه بسبب عودة الأخير إلى مصر وانقطاع الاتصالات.

فهل يتحف بها «الرسالة» الغراء أحد أدباء القطر الحضرمي؟

وما وقع تحت نظري له وأنا في سن المراهقة قصيدته المشهورة التي وصف فيها المرأة وخصَّها بالمفاضلة ما بين البيض والسمر والخضر والسود. فيا هل ترى وصف لنا الصهب والزرق إلى غير ذلك؟ لا أدري فذلك عهد طال به العهد ولم يبق عالماً بيالي منه شيء.

ومن قصائده المشهورة في المفاضلة قصيدته التي خصها بالنخل، ويقال إنه ذكر فيها زهاء مائتين وخمسين اسماً من أسماء النخيل الموجودة بحضرموت.

وما علق بذاكرتي منها قوله يصف نوعاً من النخل يسمى باليتيمة:

وعَادَ تَمْرُ الْيَتِيمَةِ، يُعْجِبُكَ خُزْعُهُ وَصَيْبُهُ تَقْدُومٌ لِأَهْلِ التَّنْفَخَارِ

(ماشي كما التمر في الدار)

(الالفاظ: عادُ بمعنى بقى. والخُزْعُ من التمر: ما أخرج نواه. الصَيْبُ: هو ما

أخرج نواه أيضاً، وهُرس بالأرجل كما هو معروف في حضرموت. أهل التَّنْفَخَارِ: هم الضيوف الذين يفدون على بيوت الكرم ممن يفخر بهم).

وأكثر أشعار هذا السيد (حُمَيْيَّة) أي أنه لم يلتزم فيها قواعد الإعراب ولها عروضها الخاصة لأنها تتابع الأنغام.

وهذا السيد هو والد الشاعر الكبير شيخ النهضة الحضرمية أبوبكر بن شهاب.

وأخيراً أتاحت لي الفرص التعرف على أسماء جانب من الأسماك

وذلك بفضل الرحلة الشاقة التي دفعت ثمنها بالمخاطرة الروحية.

إذ أقلتني من ميناء حضرموت (المكلاً) إلى (جدة) ساعة شراعية. حقاً إن هذه الرحلة شاقة مضية ولكنها تذكرنا بآثار آباءنا الصيِّد الذين كانوا يخترقون البحار بمراكبهم الشراعية، وكانت لهم السيادة البحرية إذ ذاك.

وكانت بواخرهم تقلع من موانئ حضرموت إلى أقاصي الشرق الأقصى، ولهم في هذا الميدان تاريخ عظيم القدر مشهور بمكانته العظيمة، ولهم مع البرتغال مواقف مشهورة ليس هذا موضع الحديث عنها.

وكان علماءهم لا يدعون الأوقات تمر عليهم سدى، فكانوا يحصلون العلم وهم في أثناء سفرهم الذي يمتد بهم إلى أكثر من ستة أشهر إلى أن يصلوا إلى الموانئ الشرقية بجزر الملايو وجاوة.

وفوق هذا فقد كانوا يقضون على السامة التي تعقب مثل هذه الرحلات الشاقة بما يتفرغون له من دروس علمية أثناء سيرهم واستنساخ بعض الكتب العلمية التي هم في حاجة إليها.

وعسى أن تتاح لي الفرصة فأوافي «الرسالة» الغراء ببحث خاص ذي صلة بالموضوع، (ومن كان متعجلاً فليراجع ما ورد بهامش مقال لنا نشر في عدد ٢٣٤ من مجلة الرابطة العربية تحت عنوان: خصائص الشعر في عصر ابن شهاب، أو يبيل غلته بمراجعة تاريخ دخول الإسلام إلى الفلبين وهو من تأليف الدكتور نجيب صليب اللبناني المتوفى سنة ١٩٣٥م، وهو مطبوع في اللغة الإنجليزية طبع (منيلاً) سنة ١٩٠٥م).

لقد كانت المدة التي قضيتها في البحر من حين أبحرنا من (الكلاب) بعد ظهر يوم الأحد في ١١/٧/١٩٤٣م إلى أن رست بنا السفينة في ميناء (جدة) في ١١/٢٥/١٩٤٣م هي الكفيلة بأن نتيج لي ما لم يكن في الحبان.

وكان الدواعي التي تجعني أهتم بالبحث والتعرف على أنباء اليم كثيرة، ولو لم يكن منها إلا المتعة الغذائية التي يتحفظنا بها اليم في صباح كل يوم ومساها لكنت هي وحدها كافية، فضلاً عن الناحية العلمية التي يجدر بنا أن نشارك فيها بحسب المستطاع.

لفتت نظري هذه الأحياء العظيمة التي نشاهدها في البحر في كل آن، وهي غشي زرافات ووحلدانا، والتي منها ما يتحدى سفينتنا في مجراها. فكاشفت ريان السفينة الحضرمية والبحارة وزملاءهم أن لي شغفاً بالتعرف على هذه الأسماك مما شاهدنا وما لم نشاهد. فما كان منهم إلا أن أمدوني بهذه المعلومات التي أدونها «للمسألة» الغراء، ولهم عليّ فضل الشكر والشكر.

ولم يحجم أبناء البحر - أستغفر الله - بل أخذانه عن الحديث إلا ريثما أدون ما يفوه به المتصدي للحديث، وكنت أدقق في ضبط الألفاظ غاية التدقيق حتى إذا ما أشكل على لفظ استعدته مرة أخرى. هذا ما كان من جانبي؛ أما ما كان من جانبهم فإنهم كانوا مرهفين أسماعهم لمحدثي. فإذا ما قدم أو آخر نهبوه إلى غلظه في الحال.

فكانت لدي متعة روحية طيلة الساعتين التي قضيتها في العوم مع الأسماك.

ومن حديثهم أن الأسماك تنقسم إلى ستة فصائل:

١ - الفصيلة الأولى:

وهي ما يسمونه بسلطان البحر واسمه في عرفهم شُوْحَطْ، ومن فصيلته: صِيُون، حاش، قفّة.

ويلي هذه الأسماء خمسة أسماء أخرى لأنواع هذه الفصيلة، وقد غرت عن أذهانهم أو لم يعرفوا أسماءها أصلاً.

وبهذه الفصيلة يوجد العنبر وبالأخص فهو كثير الوجود في الشوْحَطْ، وفي ثلاثة أسماك أخرى من الخمسة التي لم يحفظوا أسماءها.

٢ - الفصيلة الثانية:

هي فصيلة اللَّحْم (بكلآه)، وهذا ما أملاه علينا منها: حَمِمْ، أبو سَيْف، قُتْطَه، شَرِتْ، قَرِينْ، شَغْصَه، هِلْكَه.

وهذه الأنواع السبعة من أحسن الفصيلة طعماً، وهي حسب ترتيبها:

عُورَه، حَفِي، زَفِي، نَمْرَانِي، شِوْطْ، كَلْبِيَه، نَعْل، دَجَلْ، حُبُورُوقِي، دُوعَه، مَسْكَحْ، شَيْخَه، عَورُوبِرْ، عَفْرْ، يُونْبِيلْ، قُطْقُطَه، خَنِثْ، بَرَبِيرْ، نَصْفُوسْ، بَيْرْ، صَعْمُورْ، قَطْفْ عَلِي، قُطْفْ حِمْرَه.

٣ - الفصيلة الثالثة:

هي الصيد الأسود، وهذه أنواعها:

ثُمَّدٌ، زَيْتُونٌ، شُرُوبٌ، صِرِيْسٌ، بَاعِكِيْمَةٌ، ثَيْلَمٌ، حَقِيْبَةٌ.

ومن السِّتَةِ الأَنْوَاعِ الْمَذْكُورَةِ يُصْنَعُ (الْحَنِيْدُ) الْمَعْرُوفُ بِهَذَا الْإِسْمِ فِي حَضْرَمَوْتِ.

٤ - الفصيلة الرابعة :

هي ما يسمى بالصيد الأبيض، وهذه أنواعها:

تِرْنَاكٌ، عُوْدِيٌّ. (والنوعان من أطيب الأسماك).

صَنْكٌ، خُمْخُمَةٌ، شِرَامٌ، رِغِيٌّ، زَرْبٌ، رِحْتُهُ، قَزَّةٌ، طِمَكْرِيٌّ، سِهَائِيٌّ، زَعْفَنَةٌ، صَلِيلٌ، قَقَاظٌ، خِرْحَارٌ، عَنَقْلُوْصٌ، صِغِيَارِيٌّ، شُمَّةٌ، حِرَابٌ، بُكَّةٌ، غُلْسٌ، ظَرْهَدٌ، طَوَيْلَةٌ، فَرْسٌ، عَنَبْرِيَّةٌ، تَكِيَّةٌ.

٥ - الفصيلة الخامسة :

وتسمى بصيد تَشَارٌ^(١)، وهذه أنواعها :

صِرْعَةٌ، (وهي أحسن أنواع هذه الفصيلة) ثم :

زُوْكِيٌّ، حُدْرَةٌ، وَيْقَدٌ، عَيْظُولٌ، رُغْفٌ، رَعْنٌ، خُوْدْرَةٌ، عَنْدَقٌ، بُوَعْدَلٌ، غَرِيْبِيْسٌ، بَطَّاحٌ، قَرِيْبِيَّةٌ، نِسَارٌ، قَرْحِيْقٌ، أَبُو قِشَارٌ، قِلْوَانٌ، حَيَوِيْرٌ، حُمُوْرَةٌ، طِيْمٌ، بَهَارَةٌ، ثَيْرٌ، دَرْدِيْرَةٌ، دُنْقُرَةٌ، حُمْرَانٌ، صُمْرَارٌ، كُتْبٌ، نُكْرٌ، صُرَادَةٌ، زَرِيْبَةٌ، بَرِيْبَةٌ، وَقَاصٌ، نَاقِمٌ، صِرِيْرٌ، مَحْلُوْلٌ، مِشْعَاٌ، قَفَادٌ، عُمْدٌ، فِشَارٌ، مَرِيْبَعٌ، صَبُوٌ، بُوْحَيْطٌ، حَيْثُوْلٌ، مِلْمَامِيٌّ، عُنُوْبٌ، شِمَاطٌ، قَطِيْمِيْمٌ، بُوْلِيْفَهٌ، طَرْعِيْنٌ، دِقْتَهٌ، مَغَاسِمٌ، جَزَكٌ، أَبُو

(١) تسمى في الواقع (فتشار).

صَنْدُوْقٌ، شِيْخْرٌ.

٦ - الفصيلة السادسة :

وهي التي تصاد بالشبكة، وهي :

عَيْدٌ، زَمَّارٌ، طُبُوْبٌ، بَلْعَدٌ، شِفْرَهٌ، عِرْعِرَهٌ، عَيْدٌ بَعِيْدُوْنٌ، شَيْطِيٌّ، مَتَوِيٌّ، حَضِيْرَهٌ، كِرْمُوْنٌ، بَاغَهٌ، حَابِسٌ.

ملاحظة :

تطيب بعض الأسماك في وقت، ولا تستحسن في الوقت الآخر. مثاله (التِرْنَاكُ) فإنه يلذ طعمه في فصل الخريف بحسب التوقيت العالمي كما يوافق فصل الشتاء بحسب التوقيت الحضرمي، ولهم في هذا دليل كما يقول القرينزي.

أما (العُوْدِيٌّ) ففي كل وقت فهي لذيدة الطعم.

وفي العَيْدِ - يعني صغار السمك - يقول بعض أدباء الحضارمة في المهجر هازلاً:

من لي بوطء ترى تلك البقاع إذا ما جنت مستقبلاً عُوْدِيٌّ إِلَى وَطَنِي
مِنَاكْ أَنْشُدْ مَسْرُوراً وَمَفْتَخِراً (العَيْدُ وَالصَّيْدُ وَالْأَسْمَاكُ تَعْرِفْنِي)

اللغة المهرية :

هذه هي المعلومات التي دونتها عن الملاحين الحضرميين طيلة الساعتين التي كنت أتخطر فيهما مع النسمة الروحية - لا - الغذائية.

وهي كما ترى على أكثرها مسحة اللغة المهرية والشحرية - نسبة إلى الشحر - وهي ليست بذلك كما يقول علماء اللغة.

وقبيلة مهرة من القبائل العربية ونسبتها إلى قضاة. وتسكن مهرة في ظفار الجبوتية ومرباط وسيحوت وغيرها من الأماكن الشرقية بالنسبة إلى موقع حضرموت، وهذه الأماكن يشملها اسم حضرموت، وذلك حسب التقسيم الجغرافي القديم، ولا يعتد بالتقسيم السياسي اليوم.

وذكر بعض مؤرخي العرب أن لغة مهرة هي من بقايا التراث العربي القديم، أعني أنها من بقايا لغة عاد، وهي إلى اليوم لا كتابة لها.

ويؤكد بعض المؤرخين أنها من بقايا اللغة الحميرية. ويؤيد هذا الرأي فضيلة شيخنا العلامة الكبير مفتي (جوهور) سابقاً السيد علوي بن طاهر الحداد العلوي^(١) فيقول:

«ويدل على هذا وجود كلمات فيها نص علماء اللغة على أنها حميرية. أذكر منها أنهم يسمون اللبن (شِخَوْفٌ) وهذا اسمه بالحميرية كما في القاموس، ويقولون: (قَيْهَلٌ) بمعنى أقبل. وقد ذكر هذا اللفظ بمعنى الوجه في ترجمة صاحب القاموس، ويقولون للنار (شَوَاظٌ)، وهذا محرف عن (شَوَاظ)، ويسمون الماء (حَمَوَةٌ) وهذا هو اسمه في لغة عربية بتفخيم ألف وزيادة الحاء فقد حكى علماء اللغة أنه يقال: فيه (حاه) على لغة فإذا فخم الألف قرب جرسه في السمع مما ذكر.

وقال أيضاً^(١): وللمهرة والقرى - هم بادية مهرة وتسكن الجبال - وأهل سقطرى لغات متقاربة تجمعها اللغة المهرية، وبينهما فروق. وتسمى لغة القرى بالحكلى.

وأعدادهم محرفة عن العربية بتحريف بعيد أو قريب، والعدد في لغة الأماحارة الحبشية أقرب إلى العربية منها.

أعداد القرى	أعداد المهرة	أعداد الحبشة
١ - طاد	طَاطْ	أَحَدْ
٢ - ثِرَةٌ	ثَلْثْ	لِثْنِ
٣ - صَاطِيطْ	صَافِيدْ (أو صَفِيد)	سَلَاسِي
٤ - أَرِبَعَطْ	أَرِبَوْتُ	أَرِبَوَّ
٥ - خَوْنَشْ	خَمَّة	خَمَّة
٦ - شِتْ	يَتِيَّ	سَدَسْ
٧ - شِبَعَتْ	هِيَّايَتْ	لَسِبُو
٨ - ثَنِيَّتْ	ثَمِنَتْ	سَمَانِيَّ
٩ - تَسَعَتْ	ثَابِتْ	زَطِّي
١٠ - عِشْرِتْ	عِشْرِتْ	عِشْر

هذا ما نص عليه فضيلة شيخنا في محاضرة له عن ظفار الجبوتية، نجزئ بالنقل عنها بما يهمنا حسب سياق البحث.

(١) نثر الصدر صفحة ٩٧، ٩٨.

(١) راجع ص ٩٧ من المجلد الثاني لجملة الرابطة العلوية الصادرة من بتانيا، جاره سنة ١٢٤٧ هـ.

١ - Die Mehri, Sprache. In Sudarabine من تأليف A. JAHN وطبع

في فيينا سنة ١٩٠٢م.

٢ - Die Mehri und, Soqtri Sprade .

كتاب اللغة المهرية والسقطرية، وهو باللغة الألمانية طبع في فيينا سنة ١٩٠٢م و١٩٠٧م، وهو في ثلاثة مجلدات.

٣ - رسائل متعددة وهي من تأليف N. reotted Sikanakobodr . مطبوعة في منشورات المعهد العلمي في فيينا سنة ١٩٠٩م وبعدها.

مرامي العنبر والإبل المغيرة :

ولن أحميد أصلاً عن موضوع بحثنا حينما أستطرد إلى مرامي العنبر، ولاسيما أن التاريخ العربي قد أقام لها وزناً.

ويقول الأستاذ حسن عبدالسلام عن منشأ العنبر في كتابه "الذخيرة" :
«ويقلب على الظن أن منشأ انعقادات صفراوية تتكون في أمعاء بعض القياطس البحرية (Sqermaceti Whale) كما تتكون الحصى المرارية عند الإنسان وغيره من الحيوانات الثديية».

والقياطس البحرية هي التي أسماها البحارة الحضميون بالشوحطة، وما غرب عن أذهانهم من فصيلتها كما أشرنا إلى ذلك.

ومرامي العنبر ليست محصورة بمكان واحد. فكما يوجد على شواطئ البرازيل وجزيرة مدغشقر وجزائر الهند الشرقية والصين واليابان وزيلندا الجديدة وأستراليا وساحل أفريقيا الشمالي، كذلك يوجد على الشواطئ

ولتكلمة البحث ثبت هذه الألفاظ عن اللغة المهرية وهي :

الفاظ مهريه	يقابلها بالعربية
تُخُول	اجلس
أُتْ	قم
ثِيوُوط (الثاء مفخم)	النار
حِيلُو	الليل
من هوك قهيك؟	من أين جئت؟
كمبيت	الصفحة
شخوف	الدين
هيبيت	الناقة
هيرون	الغنم
بَقْرِيْت	البقر
مَحَل	السمن
عَجِين	صبي
عَجِيْت	بنت
حِيْرَانِي	ابني

وعن اللغة المهرية صدرت في أوروبا هذه المؤلفات القيمة التي ذكرها المستشرق الإيطالي (اللينو) (راجع مجلة الزهراء). فعسى أن يقوم بترجمتها المجمع اللغوي أو أحد أبناء العروبة البررة، ومنها :

الهندية والعربية إلى باب المنذب.

وللسواطئ الحضرمية نصيب من ذلك كما حدثنا التاريخ عنها في القديم بل والحديث.

قال الهمداني: «وبها - أي اليمن - مرامي العنبر على سيوفها، ولمرة وبني مجيد على سفي بحر اليمن شرقاً وغرباً الجمال المعبرة. وذلك أن مسائهما على الساحل، وإذا اشتم الجمل العنبرية برك فلم يثر حتى يفترقه صاحبه، فيطلبه فيجده بالقرب منها فيلتقطها. فإن أبطأ عليه لم يبرح حتى تفرق قواه من الجوى وربما نفق فذلك خيفته عليها»^(١).

وقال في موضع آخر: «وباليمن من كرام الإبل الأرحبية لأرحب بن الدعام من همدان، والمهرية ثم من المهرية العيدية تنسب إلى السعيد قبيلة من مهرة، والصدفية، والجرمية، الداعرية تنسب إلى دعر من بلحرك، والمجيدية، ومنها الإبل المعبرة. (صفحة ٢٠١)»^(٢).

وقسم أبو عبدالله محمد أبو طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة المتوفى سنة ٧٢٨هـ العنبر إلى خام ومبلوع. وله نظرية في العنبر، أو هي نظرية المعلومات السائدة في ذلك العصر. وهذه النظرية لا تتفق والمعارف العصرية كما ذكرنا عن الأستاذ حسن عبدالسلام، ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه نبه في آخر بحثه إلى ماهو معروف لدينا اليوم وقال: قال قوم: إن للعنبر زيل هذه الدابة.

(١) صفحة جزيرة العرب، ص ٢٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٠١.

ولا غرو أن نتيح له الفرصة ليتحدث إلينا بمعلومات أجدادنا العرب السابقين قال:

«ولهذا المحيط - يقصد المحيط الغربي - مد وجزر كالمحيط الشرقي. ويقذف ساحله العنبر الخام من غالب جهاته ولاسيما من خلجانه، والعنبر تبع من عيون من جبال بقعر البحر المالح الفارسي والحشي والهندي والمغربي والصيني والموسوي فيركب بعضه بعضاً. وهو في حين خروجه شديد الفوران والحرارة، فإذا لاقى برد الماء جمد على أحجار وصار جماجم صفراً وكباراً، فيكون جموده كجمود الشمع إذا أصابه بعد ذوبه الماء البارد، فيبقى لاصقاً بتلك الصخور إلى أن يبيح البحر في زمن الشتاء فيقتلعه قطعاً قطعاً ويخرجه إلى سطحه فترمي به الأمواج إلى الساحل.

وأجوده الذي يقع إلى ساحل الشحر من بلاد المهرة فيلتقطه الجلابون؛ وربما ابتلعه سمك يسمى زوال، فإذا ابتلعه مات من شدة حرارته فتريقه الأمواج أيضاً فيشوق عنه جوفه ويستخرج منه، وله رائحة زهمة ويسمى المبلوع والآخر الخام».

والعنبر إذا ألقاه الموج إلى الساحل لا يأكل منه حيوان إلا مات ولا ينثر منه طائر إلا انفصل منه منقاره. وإذا وضع عليه رجله نصلت أظفاره فإن أكل منه شيئاً مات.

وقد ورد في دابة العنبر حديث صحيح وهو: أن النبي ﷺ بعث لثلاثمائة رجل سرية وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فأجهدهم الجوع حتى إن الرجل كان يقات في اليوم والليلة بتمر واحدة،

فبينما هم يسيرون على ساحل البحر إذ أصابوا دابة العنبر مثل الكتيب
الأضخم مينة فاكلوا منها شهراً حتى سموا وكانوا يغترفون من وقب
عينيها الدهن بالقلال، وأخذ أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في
الوقب، وأخذ ضلعاً من أضلاعها فنصه ثم أدخل أعظم بعير وأركبه أطول
رجل وأمره يدخل تحت الضلع قلم يبلغ رأسه مقعره. ولما رجعوا تزودوا
من لحم السمكة حتى أوصلتهم إلى المدينة. فلما قدموا حكوا ذلك لرسول
الله ﷺ فقال: هذا رزق ساقه الله إليكم. فهل معكم شيء فطعمونا؟
فأرسلوا إليه منه فأكل.

وقال قوم: إن العنبر زبل هذه الدابة. (صفحة ١٣٣ - ١٣٤) من كتابه
(نخبة الدهر وعجائب البر والبحر) المطبوع في بطرسبورغ سنة ١٢٨١هـ/
١٨٦٥م.

ومن نصه نفهم امتياز العنبر الذي يلقي على الشاطئ الحضرمي على
غيره.

وللمسعودي إشارات إلى مرامي العنبر بالشواطئ الحضرمية والإبل
المعتبرة فليراجعها من أحب.

ولا أعرف عن الإبل المعتبرة شيئاً اليوم. أما مرامي العنبر فلا تزال
القباطس البحرية تكرم شواطئنا الحضرمية بمراتها الودية في كل حين.

وهذه الإبل المعتبرة هي التي أشاد بذكرها التاريخ في سرعة السير كما
تحدثت عنها الأسفار الأدبية. قال البيهقي الحنفي:

وما جرة بشوى مهاها سموها
منفرة منفرجة حضرية
فطرت بها شجعاء فرماء جرشعا
وجدت أباهار انضيبها وأمها
وقال جرير:

ركبت ولا أشد حبال رحل
من العبيدي في نسب المهاري
ونعرف عنقهن على نحول
وقد لحنت شمائلها الضامام
وقد غالى في القول أبو الشمقمق وجاوز الطرف إذ جعل نعليه تسابق
الإبل المهرية على شدة سرعتها في السير، ولدعه يحدثنا كما شاء له ظرفه
وأدبه. قال:

رجل المطى إليك طلاب الندى
إلا لريكن في بابيزيد مطبتي
غدى أمار البيعملات وتقتلي
من كل طاونة الصوى مزورة
فبأذركبت بها طريقاً عامراً
لولا الشراك لقد خشيت جماحها
نناب أكرمروانلاً في بيتها
ورحلت نحو ناقتي نعليه
فجعلتها لك فسي السفار مطبه
في السير تترك خلفها المهرية؟
قطعاً لكل تنوفة روسيه
تنساب تحتي كأنسياب الحيه
وزمامها من أن نمس بديه؟
حسباً وقبة مجدها مبنيه

أعني يزيداً سيد آل محمد فراج كل شـلـبـدـة مخـبـه
 يوماً يوماً للمواهب والندى خضل ويوم دم وخطف منيه
 ولقد أتبتك وأشفا بك عالمًا أن لست نسع مدحة بنسبه
 ويقصد الشاعر بيزيد: يزيد بن المؤيد الشيباني، وكان والياً على اليمن.

الشعر العربي في حضرموت (١)

للأستاذ: أحمد طه السنوسي

البيئة الحضرمية بيئة عربية قحة، وهذه أول ميزة وأول موجة للشعر الذي يقال فيها وينشده شعراؤها في حيزها، والميزة الثانية قد نتجت عن الميزة الأولى، فنحن نجد أن التخاطب في حضرموت بلهجة تقرب من اللهجة المصرية. ونجد في التخاطب الحضرمي أنه يستعمل ألفاظاً عربية أصيلة كثيرة مما لا نحس له وجوداً في تخاطب البلدان العربية الأخرى، وما لا يذكر إلا في المعاجم عادة، ويرجع ذلك إلى امتداد الصبغة العربية القحة منذ فجر التاريخ الحضرمي إلى اليوم. ولم يستطع التطور الحديث أن يقتحم بقوته فيقضي القضاء كله على النزعة والصبغة العربية الأصيلة في هذا البلد الحضرمي.

وعلى هذا فليس من عجب إذا ما ألفينا الشعر الحضرمي أقرب الأشعار العربية إلى الأشعار القديمة وخاصة الجاهلية، وتلك ظاهرة لا يجد المرء نصباً في استشفافها والوقوف عليها حين اطلاعه على أشعار الحضارمة، ولا يغيب عنا أن شاعرنا الكبير امرأ القيس نشأ في زمنه في هذا القطر وقال شعره فيه، فبيئة حضرموت إذاً بيئة الشعر منذ أقدم عصوره، وبيئة التفنن منذ فجر تاريخه، كما أنها بيئة عربية ولهجاتها رمصادرها.

(١) مجلة الرسالة، عدد ٨٨٧، الصادرة في ٣ يوليو ١٩٥٠م، القاهرة.

ولا نستطيع أن نقول إن الشعر الحضرمي الحديث قد بلغ شأواً بعيداً وذروة رفيعة من المجد الشعري الحديث على الرغم مما آداه في عالم اللفظ من جمال وقوة، وما وصل إليه في عالم الوضوح من الرقي والرفعة؛ وذلك أرجعه إلى علل وأسباب أهمها: أنه لا يتأثر إلا قليلاً بالثقافة الحديثة، وأنه يفرق في اللفظ وضخامته وفخامته ثم يُدر للنواحي الأخرى بعض الاهتمام، وهذا البعض يطرح به الأسلوب حيناً ويتغاضى عنه الشاعر نفسه أحياناً. ثم إن هذا الشعر الحضرمي لا يمكن أن يجد فيه العربي خارج حضرموت لذة وجمالاً، وإنما يجد هذه الأشياء الحضرمي الذي يعيش في البيئة الحضرمية فوق أرضها وتحت سمانها، وهذه البيئة لا يستينها بالطبع ذلك العربي خارج حضرموت، وبالتالي فتأثيرها على الشعر جعل هذا الشعر غير مستساغ في الجو العربي الخارجي. وبالرغم من أن هنالك شعراء تخلصوا من هذا الحيز ومن تلك السيطرة فأمكن لنا ولغيرنا أن نجد في شعرهم لذة وجمالاً، وأخذنا نقبل عليه يزيدنا شوقاً إليه. إن فيه الروح العربي الصميم مما لانكاد نجد له المثل في الإغراق في الشعر العربي الحديث؛ نظراً لتأثر هذا الأخير بالثقافة الحديثة والتطورات الزمنية والبيئة الموجهة.

على أننا نجد أن هنالك في حضرموت ككل بلد عربي شعراً شعياً يدعى « بالشعر الحميني » وهذا النوع ينتشر في حضرموت ويرتقي ويجد رواجاً كبيراً، غير أنه أيضاً قد تأثر إلى حد بعيد بالصبغة العربية القوية للشعر الحضرمي، فلو لا اللهجة وتحريفها وأساليبها لأضحى شعراً حضرمياً حقاً.

ثم إننا نلاحظ شيئاً هاماً في الشعر الحضرمي، وذلك هو الصبغة الصوفية والنزعة الفقهية، ونحن لو درسنا الشعب الحضرمي وبيئته واتجاهاته نجد أن هذه الصبغة وتلك النزعة متاصلتان فيه، بارزتان واضحتان في أفكاره ومناحيه، فلا غرابة أن يبرهما إلى درب الشعر لنجد سلكاً جميلاً للبروز والانتشار، ولا غرابة أن يبديهما في ثوب الشعر لتستطيعا أن تجدا طريقهما إلى التأثير الصحيح والفائدة المطلوبة منهما، ولكن هناك فارقاً هاماً بين هذه الصبغة وتلك النزعة في الشعر الحضرمي، وبينهما في الشعر العربي القديم؛ ذلك لأنهما في الشعر الحضرمي لا يزيدان على كونهما غلالة شفيفة تعكس هذا الشعر دون أن تطفى على رداء المعنى؛ وذلك لأن المعنى نفسه ليس في المرتبة الأولى إذا قناه باللفظ في ذلك الشعر، فالمعنى لأيهتم به كثيراً، سواء أضعاه اللفظ أو غشته غلالة الصوفية وكساء النزعة الفقهية.

لكننا مع ذلك لانستطيع أن نعظم الشعر الحضرمي حقه الواضح في بلوغ ذروة عالية حين يحدثنا عن الألم ودواخل النفس وتأثرات الشعور، فإنه يجمع إلى جمال الوشي استئثاره الشاعر، ويضفي على الوصف الدقيق وعلى تصوير الدواخل والدوافع والإحساسات جميل اللفظ وبديع الأسلوب، فيأتي بشعر جميل حقاً يقرؤه المرء فيجد فيه صدقاً وإخلاصاً في التصوير وتشويقاً في العرض وجلالاً وجمالاً في الإداء والإبداء.

ويقول الشعر الحضرمي في كل الأغراض التي قال فيه الشعر القديم، ويهمه أن يدلف درب ذلك الشعر ويحذو حذوه، ولا ينسى في بعض

الاحايين أن يشاركه في الدمن والاطلال والاهتمام بالتجريد وذكر الآلات
والاشياء المحطمة من بيته الحضرمية .

ولعل أهم الأمور التي جعلت الشعر الحضرمي - على جلاله قدره
ورفعة مرتبة - غير معروف وغير مدروس في عالمنا العربي أن أغلبه لا ينشر
ولا يجمع، فهي البيئة الحضرمية التي تتداوله بالرواية وتملي عليه الخمول
فلا يأخذ طريقه لنشر أو لذيوغ ودرس في الحلقات الخارجية من الجبر
العربي . وما ينقصه إلا أن يعترف بأهمية القومية العربية الشاملة في
قصائده ويهتم بها، وأن يقلل من إخلاصه للجاهلية من ناحية، وأن يسائر
ركب المدنية ولا يبخل بالثقافة الجديدة والتطور الجديد من ناحية أخرى،
وأن يلج سده ويهز سرجه بلجامه إلى الأمام . وهاكم بعض الأمثلة :

قال الشيخ عبدالصمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله باكثير الكندي^(١)

في شكوى الحظ العائر :

أراني إذا ما الليل جاشت كنانيه أبيت وقلبي حائر الفكر ذاهبه
أفضبه بالأشجان والهمر والأسى ودمع على الأوجان ينهل ساكبه
تبيت أناعبي الهمر في غيب الدجى تساور قلبي بالعناء وتوائبه
وقال أيضاً :

يا عاذلي دعني وشأني إن لي قلباً بنير الحب لا يستأنس
كيف السلو عن الأحبة بعدما دارت علي من الصباة أكوس

(١) شاعر حضرموت الأكبر في القرن العاشر الهجري، له ديوان ضخم لا يزال مخطوطاً.

ويقول مثلاً :

خذ من قدير حديثي مبتدا سني وما أفاصي من الأوصاب والألر
فمبتدا خبري فعل اللواظ من عيون خشف رمت سهما أراق دمي
رمى فشك الحشا من نبل مقلنه بغير شك وقد أوهى قوى همي
فطار بومي ربات الهمر بقلني ومهجني للظى الأشجان في ضرر
وخالف النوم أجفاني وحالفها طول السهاد فلر أهذا ولر أفر
محا الغرام سلوى واستباح دمي هوى الأغن فسرى غير منكمر
لي في الظلام أنين كلما سجعت ورقاء أرقت فرالهنبي وواندمي
يرق لي كل من بالليل يسعني فمن لصب عميد باللحاظ رمي

ويقول السيد شيخ بن عبدالله العيدروسي العلوي في قصيدة رثاء :

تنفض فنمضي حكمها الأقدار والصفر غدث بعده الأقدار
والدهر أبلغ واعظ بفعاله وكفى لنا بفعاله إنذار
وهو القائل في توسيلة له :

يا من لقلب بالصباة ممتلي وأضالع بلظى القطبعة تنظلي
من ذالمابي كاشف إلاك يا من قد مدلات له أكف توسلي

ويقول السيد محمد مولى الدولة العلوي :

الحب حبي والحبيب حبيبي والسبق سبقي قبل كل مجيب

توديت فأجبت المنادي مسرعا
 لبي تسعة وثلاثة مع تسعة
 ويقول محمد بن أحمد بن يحيى بن أبي الحب الخطيب الأنصاري من
 معاداته الشعرية:

تجنب أرضك الويا الوخير
 وتجنب سوحك السدم السدير
 ومنها:
 مجاج مياهها فيه شفاء
 إذا مجت على الأرض الغبير
 نسيم جنوبها أبداً صحيح
 وطبع الجوف فيها مستنير
 وطبع مياهها في الصيف برد
 وأيام الشتاء هي الحميم
 تعادل حرها والبرد فيها
 فلا برد بضر ولا سموم
 وطبع البرد فيها فيه لطف
 بطيب نسيمه تنمو المسوم
 ويقول الأمير محمد بن علي الكنيري:

إن جنت اعيننا فحي ثراها
 واستنشق العرفان من رباها
 والصق جبينك بالتراب منبلا
 شكراً لمن أولاك لشر ثراها
 بلد أقام بها الكمال وحبذا
 بلداً غدا الغوث العظير حماها
 واستقبل الشيخ المعظم خاشعاً
 في ذل نفس كي تنال مناها
 ويقول السيد عبدالله الحداد العلوي في حديث نفسي:

ألا يا نفس وحك كمر تواني
 وكمر طول اغترار بالمال

وكمر سهو وكمر لهو وهزل
 وكمر ميل إلى دار الزوال
 وكمر شغل بما لا خير فيه
 وكمر حرص على شرف ومال
 وكمر تلويح عن محمود فعل
 وكمر تفكير في فيح النعال
 وقال أيضاً:

أيا مشغول بليل
 عن جميع الكون جملة
 فإذا ما قيل من ذا
 قل هو الصب المولود
 أفئذيه الراح حنى
 لم تنبق فيه فضله
 راح أنسي راح قدسي
 ليست الراح المضله
 ومن شعر حضر موت راعينا في انتقائها تصوير الواقع وتسجيل
 الموجود، وهو جدير بالعناية، قمين بالالتفات والاهتمام.

الأدب الحضرمي وعلاقته بمصر (١)

بقلم الأستاذ: طه بن أبي بكر السقاف (٢)

ترتبط القطر الحضرمي بالقطر المصري روابط متينة العرى، متماسكة الخلفات، أعظمها وأبرزها مظهراً رابطتا الدين واللغة: فمصر من العهد الذي غمرها الإسلام وملاً فجاجها، قد ارتبطت بالاصقاع الإسلامية - قاصبها ودانيها - وأصبحت شقيقة لهن، تتألم لآلمهن، وتغتبط لغبطتهن، وترى أن من نتائج سعادتها رفاة عيش شقيقاتها، وانسباق فجر المعارف والعلوم في ربوعها، ورؤيتها إياها رافلة في حلال الحرية والنهوض.

وإذا كانت هذه نظرة مصر إلى جاراتها المسلمة، وشعورها نحو تلك الاصقاع المنثورة التي تمت إليها برابطة الدين، وجامعة الإسلام، ووحدة اللغة، فإن مما لا مشاحة فيه ولا ريب أن شعور وعواطف الشعوب المسلمة تجاه مصر لهو أحكم عقدة، وأشد إبراماً، وأعمق أثراً، وكيف لا يكون كذلك... ومصر ما برحت مصدر الثقافة، ومنبع المعارف، ومحط الآمال، ومناط الرجاء؟ وأن العالم الإسلامي ما انفك يرنو إليها - ككلية

(١) نشر في مجلة المعرفة العدد ١٧، سبتمبر ١٩٣٢م، القاهرة.

(٢) طه بن أبي بكر السقاف: أديب وشاعر وصحفي هاجر من حضرموت، وعمل أستاذاً في مدرسة الجند بستغافورا، وأقام هناك حركة صحفية نشطة حين أصدر مجلته الشهرية «النهضة الحضرمية» صحيفته الأسبوعية «صوت حضرموت» وكانت صوتاً عربياً عالياً في المهجر، لم يجمع شعره في ديوان، توفي في ستغافورا في أواخر الخمسينيات، والمؤسف أن من تمكنا من الاتصال به من أبناء هذا الأدب الكبير لا يعلم عن والده أكثر مما أوردنا !! (م . ب . ح)

جامعة لاشنات العرفان، وكمصدر رئيسي للثقافة الدينية - وبالرغم من وجود حركات هدامة، ونعرات جاهلية حديثة العهد - يقوم بها فئات من أبناء مصر - من التشدق بالفرعونية، والتغني بالقومية، مما يرمي إلى فصل مصر عن شقيقتها الإسلامية، ويقذفها فراسخ عن عطفهن - كما هي الحال الواقعة في تركيا - فلا يزال لمصر في قلوب الناطقين بالضاد منزلة المحب المكرم.

وفي طليعة البلدان التي تنظر إلى مصر - كما ينظر الفلكي إلى إصطرابه - «حضر موت» التي كانت - ويا للأسف - أسباب المواصلات وسبل الاحتكام بينها وبين مصر متعمرة؛ لصعوبة أسباب النقل والمواصلات، ومع ذلك فإنها تنظر إلى مصر بعين الإجلال والإكبار، وتدني لها بكل ما تنعم به في نهضتها الأدبية الحالية، بل في كثير من مناحي حياتها الدينية، إذ إن أمهات الكتب الدينية وأسفار التاريخ التي تدرس فيها لم تستجلب إلا منها، ولا عبرة بوجود بعض كتب طبعت في الهند، فهذه - على ندرتها - لم تكن من أمهات الكتب وكبرياتها.

وليس الأدب - في الحقيقة - إلا شعور وأحاسيس وأخلاق يرسمها قلم الناظم والنائر على القرطاس، فتلمس فيها تقدم الأمم أو تأخرها، وكلما ضربت الأمة بسهم وافر من المعارف، ونضجت ملكاتها العقلية، كانت أقرب إلى الإجابة، وأسرع إلى النبوغ في مقاصد الأدب وأغراضه من غيرها، ولا يغرب عن البال أن للبيئة والمكان أثراً فعالاً في ازدهار الأدب أو تقويمه، بيد أنه باعتباره مادة الحياة، أو بعبارة أخرى «تراث إنساني»

اشتركت فيه جل الأمم، وإن اختلفت صورته وأشكاله من حيث قوته عند البعض، وضعفه عند البعض الآخر، فإن هذا يرجع أمره إلى استعداد الوسط، وقابلية البيئة كما علله الباحثون.

ومهما يكن من ضؤولة المجهودات الأدبية ونتائجها بحضرموت، والندثار آثار كثير من حملة البيان وأساطين القريض بها؛ لعدم اعتنائهم بالتدوين من جهة، واستفحال شأن الإباضية والخوارج فيها من سنة ١٢٥ إلى سنة ١٠٦٠هـ، وتمشي الروح الصوفية بعد ذلك من جهة أخرى فلا تزال أسفار التاريخ تحفظ لنا جزءاً يسيراً من تراث الأدب الحضرمي الخالد، وهو، وإن كان ضئيلاً، غير أننا نستطيع أن نقيس به الروح الأدبية في «حضر موت»، ونتملمس بأيدينا المدى الذي بلغت إليه.

ويجدد بنا - قبل الدخول في معمعان هذا البحث - أن نقسم تاريخ «حضر موت» إلى ثلاثة أوار، وغرضنا من هذا التقسيم أن نرف إلى الفارئ - غير الحضرمي - صورة مكبرة للقطر الحضرمي من العهد الجاهلي إلى عهدنا هذا، ولعلنا نؤدي بهذا بعض الواجب علينا نحو قطرنا الحبيب.

الدور الأول.. الدور الجاهلي :

لا امتداد في أن «حضر موت» كانت موطن أقوام عاد ومقر أقبال التباعة، ومعقل ملوك كندة وحمير، وآثار أولئك الأسلاف لا تزال باقية موجودة حتى الآن، وقد بلغت «حضر موت» وقتئذ من المدنية والحضارة بلغاً عظيماً لا يجهله المطلع، وقد قص القرآن علينا شيئاً كثيراً من مدنات

عاد وثمود وتبع، ومن الأدلة التاريخية الدالة على أهمية حضرموت، وخطورة مقامها، أن لقب «تبع» متوقف على الاستيلاء عليها، وهذا يبرهن على مركز حضرموت الممتاز في تلك القرون السالفة، وإلا فلم يتوقف لقب تبع على تملكها ودخولها تحت الطاعة؟

وقد أجمع المؤرخون على أن آثار الجزيرة العربية - بأقسامها الخمسة - ما برحت مطمورة تحت الرمال، وإنما دل ما ظهر منها، واكتشف صدفة، على أنها جزء من اليمن الذي لا يقل في حضارته ومدنيته روعة وجسامته، عن الحضارات القديمة من عراقية وشامية ومصرية، فإن ما عثر عليه منذ سنوات قريبة بـ «هجر» - وهي قرية في محلاف «صداء» - وما اهتدى إليه بعض العرب في «مرخة» عفوفاً، من سبائك ذهبية، وموميوات محلاة بجواهرها وأقراطها الذهبية، ومن أصنام من الذهب، وبيوت تحت الأرض مطمورة صقلت بالرخام، ومحاقد وكنوز لاتسع هذه العجالة لسردها - مما لا يبقى معه أدنى شك في تلك الحضارات الزاهية، والمدنيات العظيمة، ولو عني بالكشف عنها - لتكشفت لنا آثارها المجهولة، ولتقدمت المعلومات عن تاريخ القطر الحضرمي وما له من عظمة.

وفي هذا الدور - أعني الدور الجاهلي - لم تترك لنا الأيام كبير أثر عن الأدب الحضرمي لعوامل لا تخفى على أن ما وصل إلينا في هذا الباب، هو ما يتيه به الحضرمي ويجر أذيال الزهو.

أصبرت نفس السوء! أمر لم تصبري
بينني ومن تهوين يوم المعشر
إني امرؤ عفت الإزار عن الحنا
لم أعش منذ نشأت باب المنكر

(١) ابن عفة الشامي.

(٢) عبدالصمد باكثير.

ومنها :
باراكباً لثملة مهربية
نظري الفغار البيد تنهب الفلا

ومنها :
حتى إذا ما الليل أبرد شطره
بادرتها بالرحل شر نسانتها
ومدورة قامت ولم تلبث بها
ولما الصباح فصبحت من كندة

وصفة القول أن الأدب الحضرمي - في دوريه الثاني والثالث - كان متأخراً كما بينا ذلك في صدر مقالنا، وقد أوضحنا بعض العلل والأسباب لتأخره وانحطاطه، مستندين في ذلك إلى قرائن الحياة العقلية في حضرموت في تلك العصور - درسناها بالاستقراء علاوة على النصوص والوثائق التاريخية التي اعتمدنا عليها في إصدار هذا الحكم. بيد أن حضرموت إذا ما أرادت أن تباهل بشعرائها البارزين فلا أظنها تقدم على هذه المباهلة إلا على أكتاف الشاعرين الفحلين: ابن عقبة^(١) وعبدالصمد^(٢). فهذان الشاعران - ولا فخر - هما الدرتان اللتان لمعنا في تلك العصور، وخلدتا لحضرموت اسماً لا يمحوه كر الأيام.

وفي مختتم القرن الثالث عشر الهجري، سرت في القطر الحضرمي حركة مباركة ونهضة أدبية فنية، فتطورت الأفكار وأخصبت الفرائح، وأصبح الشعر - بعد أن كان موقوفاً على الدمن والاطلال والرثاء والمدح - ملتقى، تشاهد على لوحته مناظر صادقة وصورة طبق الأصل للشعر الذي يعبر به عن خلجات النفس ونبضات القلب؛ ولم تكن النهضة الفكرية التي سرت في الشرق الغربي قاصرة على مصر وحدها، كلا، فإن لسوريا والعراق واليمن وحضرموت كذلك نهضات مباركات، بيد أننا لاننكر أنها قد تكون في البعض منها قوية عنيفة، وفي غيرها ضعيفة واهية؛ تبعاً لطبيعة الإقليم والبيئة؛ غير أنها تتفق في مظهرها وهيكلها، ألا وهو حاجة اللغة إلى أن تعبر عن النفسيات والأغراض بكل وضوح مترسمة في سبيلها مناهجاً يتمشى مع روح العصر ويتلاءم وعقلية أبناء القرن العشرين.

فإذا ما ذهبنا نعد من مشاهير شعراء العصر - بمصر وسوريا والعراق - (شوقي والمرحوم حافظ إبراهيم والرصافي والكاظمي ومطران وإيليا أبو ماضي والزهاوي ويدوي الجبل وشبلي ملاط والمرحوم الرافعي وأحمد محرم وطانيوس عبده) وغيرهم ممن لم نحضرنهم أسماءهم، فلنستأثرنا بالمفئذيين من شعراء حضرموت السيد العلامة أبا بكر بن شهاب، والسيد الأستاذ محمد ابن هاشم، والشاعر المطبوع السيد أحمد السقاف، والشيخ علي أحمد باكثير، والسيد صالح بن علي الحامد، والسيد محمد بن شينخ، وغير هؤلاء كثير اكتفينا بذكر المشاهير منهم. وإذا كانت هذه الشهرة لاتتجاوز حדרه حضرموت، فإن ذلك يرجع إلى رغبتهم عن الظهور وكبراهيتهم للشهرة.

والسيد أبو بكر بن شهاب، هو الذي نفخ في شعراء الحضارم روحاً جديدة والبس القريض حلة طريفة، وله ديوان مطبوع جمع من رقيق الشعر وجزله الشيء الكثير، فهو بحق يدعى مجدد الأدب في حضرموت. ولا نكتفينا القارئ أن لمصر في نهضتنا الأدبية المباركة أثراً بارزاً وبدأ بيضاء؛ فإن ما تقدمه مصر إلى حضرموت من ثمرات أفكار شعرائها العباقرة - أمثال أمير الشعراء، والمرحوم حافظ إبراهيم - جعل الحضرمي يقبل على تذوق الأدب المصري ومحاكاته، فكانت هذه المحاكاة وهذا الاحتذاء هما اللذان غنياهما بالعلاقة والصلة بين أدب مصر وحضرموت في عنوان مقالنا، وهما العلاقة التي كان لها أحسن الأثر في الأدب الحضرمي العصري.

الأدب العصري في الجنوب الغربي

بشبه جزيرة العرب^(١)

للدكتور ر. ب. سارجنت^(٢)

حضرموت :

لقد تأثرت الحياة السياسية والثقافية لحضرموت، في خلال عدة قرون على أقل تقدير، تأثراً عميقاً بما طبعتها به عدة أسرات شهيرة من السادة نذكر من بينها الأسماء القليلة الآتية: السقاف، وعيدروس، وبافقيه، وباعلوي^(٣). وفي القرن الحادي عشر الهجري أخرجت أسرة السقاف التي كان مقرها في ذلك العهد غالباً في تريم وإبلاً من الأدب الصوفي، وطبعاً أخرجت الأسرات الأخرى كذلك مجموعة غير صغيرة من المؤلفات الصوفية. وقد طبع من مؤلفات السقافين عدد ما في خلال القرن الماضي.

(١) نشرت في مجلة الرسالة، العددان ٦٢٠ (٢١ مايو ١٩٤٥م) و٦٢١ (٢٨ مايو ١٩٤٥م).

(٢) ووزير سارجنت (١٩١٥-١٩٩٤م) مستشرق بريطاني شغل عدة وظائف علمية وحكومية، له مؤلفات كثيرة ما بين كتب ومقالات طويلة وقصيرة عن اليمن بشكل عام، وحضرموت منها على وجه الخصوص. ومن أشهرها «نشر وشعر من حضرموت أو مختارات من الأدب العامي الحضرمي» (١٩٥١)، وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد سعيد دحي والسادة في حضرموت (١٩٥٠م) و«يهودي عربي من حيان» (١٩٥٣م) و«عمود وأنبيا الجاهلية في حضرموت» (١٩٥٤) وغيرها كثير. (م. ب. ح)

(٣) باعلوي: ليس اسم عائلة وإنما يطلقه البعض على عائلات السادة جرباً على العادة الحضرمية في إضافة الـ «يا» لاسم العائلة. (م. ب. ح)

ولم يقتصر نفوذ السقاين على كليتهم أو مدرستهم التي كانت في تريم، بل كانت لهم صلة بضرخ عينات^(١) المشهور، الذي تظهر صورته على طوابع البريد الحضرية، وكان نفوذهم وعلاقاتهم تمتد في ذلك الحين - كما تمتد اليوم - إلى أفريقية الشرقية وإلى الهند ولاسيما أحمد آباد، بل ربما كانت لهم علاقات بالجاليات العربية في جزر الهند الشرقية. ومن المعلوم لنا أن الأسرة كانت مزدهرة منذ عهد يرجع على أقل تقدير إلى القرن التاسع، ومن عجيب ما يروى أنه كان هناك شخص يسمى حسين ابن أبي بكر السقاف استنكر تدخين التبغ الذي كان يباع في جزيرة العرب في سنة ١٠١٢ هـ هجرية، وقد نجح في الحصول على حظر يبعه العلني في الأسواق. واشتهر السقاون بأنهم صوفيون غيورون، وارتحلوا في بقاع الأرض برسالتهم الصوفية، وتقبلوا العبادة الصوفية من أعضاء الجمعيات الصوفية الأخرى.

ومن ثم لم يكن غريباً أن يكون اليوم للحضرميين حي يقطنون به في القاهرة، بناحية الجمالية، على مقربة من مسجد سيدنا الحسين، وقد نشر عدد من الكتب الحضرية أحدها تأليف كاتب سقافي. ويحتوي هذا الكتيب على ست قصائد في مدح الإمام يحيى، نظمت في سنة ١٩١٢م حينما كانت بلاد اليمن تحت الحكم التركي، ونشرت في سنة ١٩٢٦، وبه أيضاً ردان شعريان من الإمام نفسه، إذ إن الإمام شاعر معترف بشاعريته. وقد قامت هذه الأسرة المجددة في خلال السنتين أو الثلاث الماضية بشر

(١) عينات: اسم بلدة في وادي حضرموت.

مجلة الاعتصام، وهي صحيفة شهرية تصدر في مدينة سيون، وتعالج الشؤون الدينية والثقافية والأدبية، ومن حسن حظي أنني أمتلك نسخة من هذه المجلة، وهي العدد الثامن الصادر في صفر سنة ١٣٦٢هـ، وهي السنة الأولى في حياة الصحيفة. وما يذكر عن هذه المجلة أنها مكتوبة بخط اليد، إذ يظهر أنه ليس في ذلك الجزء من الوادي مطبعة، ولا بد أن تكون هذه الصحيفة هي المجلة الوحيدة التي تصدر في البلاد العربية على هذا الشكل.

وصدر في القاهرة كذلك منذ بضع سنين كتاب آخر هام عن حضرموت اسمه «تاريخ حضرموت السياسي»^(١)، وهو يشتمل على قدر كبير من المعلومات القيمة، وليس فيما يتعلق بالشعراء العصريين، والأدب المصري، والتاريخ الحديث فقط، بل كذلك فيما يتعلق بالعلوم التي نهضت في الغرب، كعلم طبقات الأرض وعلم وصف البلدان، مما له فائدة جليلة على الرغم مما قام به الطيران في السنوات الأخيرة من رحلات الكشف والاستطلاع.

وحضرموت تواجه الشرق كما تواجه الغرب، ولقد كانت العلاقات بين جنوبي جزيرة العرب والهند قائمة على أساس وطيد قبل الإسلام بزمان طويل. ويقوم اليافيون اليوم بالخدمة المتوارثة في الحرس السلطاني الخاص لنظام حيدر آباد، كما كان اليافيون والمهريون يخدمون في الحرس

(١) تأليف الأستاذ صلاح البكري.

الخاص في أحمد آباد في عهد مضى عليه أكثر من أربعة قرون. ولدينا من الرجحان ما يقرب من اليقين إذ نعزو سبب طبع كتيب مثل كتاب "فتوح اليمن" في بمباي وغيرها من البلاد الهندية إلى أنه كان في الهند جاليات حضرية، كذلك طبعت كتب أخرى تختص بشؤون جنوبي جزيرة العرب في المدينتين الهنديتين الكبيرتين: كلكتا وكانبور، غير أنه طبع في بغداد في عهد أحدث من هذا، كتاب مشهور هو "النور السافر، عن أخبار القرن العاشر" وهو من تأليف أحد أفراد أسرة العيديروس، ويتناول أخبار الصوفيين في جنوبي الجزيرة العربية وكجرات.

وللحضارة جاليات تقطن منذ عهد بعيد في جزائر الهند الشرقية الهولندية، ومستعمرات الملايو البريطانية، وإن كان من المرجح أن نشأة تلك الجاليات لا ترجع في تاريخها إلى مثل ما ترجع إليه جاليات الحضارة في الهند. وللحضارة مطبوعات نشرت في بتافيا، عاصمة الهند الشرقية الهولندية منذ سنة ١٨٧٥م وتتناول هذه المطبوعات في معظمها العلوم الدينية، والفقه، وعلم التوحيد، وبعضها طبع حجر وبعضها طبع حروف، وبعد ذلك التاريخ عشرة أعوام طبعت خريطة هامة لشبه الجزيرة العربية، وكذلك الأطلس العربي للسيد عثمان، على مطبعة الحجر.

وقد سبق أن ذكرنا «جريدة الاعتصام» الحضرية، ولكنه لا مفر من طبع جميع الكتب الحضرية في الخارج، وكذلك الجرائد المطبوعة تأتي من الخارج. فمن ذلك أن الجرائد تستورد من جزائر الهند الشرقية الهولندية،

ومن المرجح أن يكون من بينها «جريدة حضر موت» التي تطبع في سورابايا في الهند الشرقية الهولندية، منذ نحو سنة ١٩٢٣م. وكانت تطبع في سنغافورة جرائد عربية قبل الحرب الماضية. على أنني لم أر واحدة منها، وأرجح كل الترجيح أنها كانت من تحرير الحضارة، وأنه ظلت الجرائد العربية تظهر هناك حتى عهد قريب. ومن الصحف المتداولة في المدن الساحلية للمحيط الهندي مجلة «العرب» التي تصف نفسها بأنها «جريدة إسلامية، إخبارية، أسبوعية، تصدر من الهند»؛ وقد بدأت هذه الصحيفة في الظهور في سنة ١٩٤٠ - ١٩٤١م، وهي تحتوي على أخبار ومعلومات عامة عن عدن، واليمن، وحضر موت. وهي تطبع في بمباي، وتدعى أنها حلقة الاتصال بين الهند والعالم العربي». ويرد إلى حضر موت مجموعة متنوعة من الصحف بالإضافة إلى الصحف المصرية والعراقية، غير أن توزيعها مقتصر على المدن، ولا سيما المدن التي هي أقرب إلى الساحل.

ومعلوماتنا عن الجهود الأدبية للحضارة خارج وطنهم، معلومات متناثرة في جملتها، وبما أنهم أقليات في تلك البلاد التي اتخذوها وطنًا لهم - مهما تكن تلك الأقليات مهمة - فقد جر النسيان ذيله علي جهودهم الأولى. وليس فيما أعلم في المكلا نفسها مطبعة، وإلى أن تنشأ هناك آلة للطباعة لن يكون مفر من أن ينتشر الأدب عن طريق المخطوطات التي نسخها الأيدي، أو عن طريق المطبوعات التي تستورد من البلاد العربية الأخرى. وهذا أدعى إلى الأسف، إذ إن للبلاد تاريخًا ثقافيًا عريقًا يمكن

المحافظة عليه وتغذبه بما يعيد إليه الحياة مرة أخرى، بإدخال فن الطباعة^(١).

(١) وفي العدد ٦٥٠ من (الرسالة) الصادر في ١٠/١٢/١٩٤٥م نشر حضرمي لم يكشف عن اسمه

من (بمباسا) بأفريقيا التعقيب التالي بعنوان الصحافة في حضرموت :

طالعت في العدد ٦٢١ من مجلة الرسالة مقالة عنوانها : «الأدب العربي» . للدكتور ر.ب سارجنت تكلم فيها عن حضرموت ويشر بمستقبلها الحسن، وذكر بدء الحركة الأدبية بها، وانتاشها . وبعد أن عدد بعض الأسر من السادات قال في سياق خطابه : وقد قامت هذه الأسرة المجددة في خلال الستين والثلاث الماضية بنشر مجلة (الاعتصام) ، وهي صحيفة شهرية تصدر من مدينة سيون وتعالج الشؤون الدينية والثقافية، إلى أن قال : ولا بد أن هذه الصحيفة هي المجلة الوحيدة التي تصدر في البلاد العربية على هذا الشكل .

وأحب أن أعرف جمهور قراء مجلة (الرسالة) الغراء بأن حضرموت منذ عهد قديم بدأت تباشر النهضة الحديثة نذب في شبابها، فأسسوا الجمعيات والنوادي وفتحوا المدارس التي تهين نشأتهم لحوض معترك الحياة، وقاموا بنشر المجلات والصحف ، فأول مجلة صدرت من سيون (التهديب) في حدود سنة ١٣٥٠ تقريباً، وتلتها مجلة (الإخاء) صدرت من «تريم» وقامت بها «جمعية الأخوة والتعاون» في سنة ١٣٥٦هـ، فمجلة (الحلبة) في بلد مسيلة الشيخ وحررها الأستاذ علي بن عقيل بن يحيى في سنة ١٣٥٧هـ، فمجلة (الاتحاد) في بلدة عينات وقام بها نادي اتحاد الشباب سنة ١٣٦٠هـ، فمجلة (النهضة) فمجلة، (زهرة الشباب) وصدرتا من سيون سنة ١٣٩٠هـ، فمجلة (الاعتصام) وهي الأخيرة التي صدرت منها

وكل أولئك المجلات مخطوطة إلا (الإخاء) و(الحلبة) فقد طبعتا بحروف مطبعية بعد أن بلتا بصورة خطية . على أنه يجب أن أذكر للقراء الكرام أن هذه المجلات جميعها تصدر في حجم صغير يتناسب مع حالة البلاد الأدبية والاجتماعية .

(م . ب . ح)

حضر موت وعهدا بالنحلة الإباضية^(١)

للأستاذ عبدالله حسن بلفقيه^(٢)

* لمحة عن مسمى حضرموت :

حضر موت في أصلها مملكة أو ولاية تقع في جنوب شبه جزيرة العرب، وهي وإن كانت مضافة إلى اليمن وتحسب في اعتبار البعض مخالفاً من مخاليفه، فهي معدودة أيضاً كأحد الأقاليم الشهيرة التي يتألف منها شبه جزيرة العرب . وقد أشار إلى ذلك المؤرخ الكبير ابن خلدون في تاريخه الشهير .

ويذكر ابن خلدون في تحديده لإقليم حضرموت - كما يستخلص من مواضع متفرقة من كلامه في تاريخه - أن حد إقليم حضرموت من الشرق إقليم عمان، ومن الغرب ناحية عدن أبيرة ومخلاف يبحان، ومن الجنوب البحر الهندي، ومن الشمال أرض وبار وبلاد كنده^(٣) .

(١) نشرت بمجلة «المعرفة» عدد سبتمبر، أكتوبر ١٩٣٣م .

(٢) عبدالله بن حسن بلفقيه، أديب وباحث ومؤرخ، ولد في مدينة تريم بحضرموت ثم هاجر إلى إندونيسيا، له عدة مؤلفات أهمها ما كتبه عن تاريخ الهجرة الحضرمية، ومقالات في صحف المهجر الشرقي، وفي مقدمتها (صحيفة حضرموت)، وله عدة مؤلفات مخطوطة، وقد عاد إلى وطنه الأصلي وتوفي في تريم بعد الاستقلال جنوب اليمن بسنوات .

(م . ب . ح)

(٣) ص ٩٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ج ٤ ، مقدمة ابن خلدون .

وينقل ابن خلدون عن ابن حوقل تقسيم إقليم حضر موت إلى قسمين: فيقول: إنهما يكونان معاً لملك واحد، فيسمى أحدهما بحضر موت وهو قسم الداخل، ويسمى الآخر - وهو القسم الساحلي - بالشحر وبلاد مهرة وبيسايط حضر موت. وتحديد هذه لهذا القسم الساحلي بأن من غربيه ساحل البحر الهندي الذي عليه عدن^(١)، وفي شرقيه بلاد عمان، وفي جنوبيه بحر الهند مستطيل عليه، وفي شماله حضر موت كأنها ساحل له.

أما بعض المتأخرين من علماء حضر موت فلهم أقوال أخرى ينقلونها عن تحديد حضر موت، وأشهرها أن حدها بجهة الغرب الجنوبي عين بامعبد الواقعة غربي بير علي، وفي الشرق الجنوبي المكان المسمى بديعوت الكائن غربي سيحوت، وفي الغرب الشمالي حدود ريدة الصيغر، وفي الشرق الشمالي نهاية حدود مهرة في الشمال، فيحمل هذا التحديد شرقاً على المشقاص وما حاذاها من التخوم الفاصلة بين أرض الظني ومهرة، ويحمل غرباً على جردان وما والاها.

أقدم عهد لاتصال الخوارج بحضر موت :

أول ما كان من اتصال الخوارج بحضر موت ما يذكره المؤرخون كابن خلدون من انتياب الخوارج النجدية، أي أشياخ مجدة بن عامر الحنفي، لحضر موت وبعثهم لها في سنة ٦٦ من الهجرة بأفديك لقبض الصدقة باسم الفرقة النجدية.

(١) عدن المذكورة هنا هي عدن أبيرة. انظر ص ٢٢٢، ج ٤، مقدمة ابن خلدون.

بدء عهد الإباضية :

ثم كان عهد الإباضية^(١) أتباع عبدالله بن إباض الصريمي الحارثي، وهم إحدى فرق الخوارج. ويجمعون مع بقية الفرق الخارجية في القول بتكفير عثمان وعلي ومعاوية وأصحابه والحكمين ومن رضي بالتحكيم. وفي القول أيضاً بتكفير الزاني والسارق، وفي القول بوجوب الخروج على السلطان الجائر. ويتبدئ عهد الإباضية بحضر موت بدخول أبي حمزة الخارجي البصري إلى حضر موت سنة ١٢٩ هجرية، بعد اقتناع عبدالله بن يحيى الكندي به، وبدعوة الإباضية حينما لقيه بمكة سنة ١٢٨ هـ.

محاولة إنكار العهد الإباضي بحضر موت :

كتب صاحب جريدة الهدى السيتافورية حضرة عبدالواحد الجيلاني مقالاً أطلعنا عليه بمجلة (المعرفة) عدد نوفمبر ١٩٣٢ م عنوانه: «مجلة المعرفة وما ينشر فيها». وفي هذا المقال أبدى صاحب جريدة الهدى محاولة إنكار وجود عهد النحلة الإباضية بحضر موت، وما كان من إبادتها عقب دخول الإمام المهاجر أحمد بن عيسى إلى حضر موت وتوطن السادة العلوية بها، مما ذكره مؤرخو حضر موت.

ماذا قال المؤرخون عن دخول الإباضية ووجودها بحضر موت؟

إن واجبي بإزاء محاولة صاحب جريدة الهدى - لإنكار عهد الإباضية بحضر موت، وإنكار إبادتها على يد العلويين وتلامذتهم وأنصارهم -

(١) بكر الهمزة كما ضبطه شارح الكامل: سيد بن علي المرصفي.

يتحدد في الا اريد على نقل اقوال مشاهير المؤرخين وثقاتهم لدى الامة العربية والشعوب الإسلامية. وان أسرد ما ذكره في تاريخهم عن دخول النحلة الإباضية إلى حضر موت، وعن وجودها مدة تقرب من القرنين حتى جاء عهد السادة العلويين الذي كان فيه إبادتها، وتطهير الإقليم الحضرمي منها.

ولا أتعرض إلى غير عزو القول إلى قائله ملخصاً أو مبسوطاً، ولكني أدع التعليق على ذلك لقراء «المعرفة» الذين بينهم - والحمد لله - العدد الكثير من ذوي المكانة العالية في العلم والفطنة، والاطلاع والتحقيق.

ابن جرير الطبري :

قال ابن جرير الطبري فيما يرويه عن موسى بن كثير: كان أول أمر أبي حمزة، وهو المختار بن عوف الأزدي السلمي من البصرة. قال موسى: كان أول أمر أبي حمزة أنه كان يوافي كل سنة مكة يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد وإلى خلاف آل مروان، قال: فلم يزل يختلف في كل سنة حتى وافى عبدالله بن يحيى في آخر سنة ١٢٨هـ فقال له: يا رجل اسمع كلاماً حسناً، أراك تدعو إلى حق فانطلق معي، فإني رجل مطاع في قومي، فخرج حتى ورد حضر موت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان^(١).

(١) ص ٧٨، ج ٩، تاريخ الطبري طبعة أولى بالمطبعة الحسينية بمصر.

قال المسودي في تاريخه: وفي سنة ١٣٠هـ جهز مروان بن محمد جيشاً مع عبدالملك بن محمد بن عطية السعدي فلقى الخوارج بوادي القرى فقتل بلخ (يعني ابن عقبة الأزدي)، وفر أبو حمزة. وأكثر من كان معه من الخوارج، وسار عبدالملك في جيش مروان من أهل الشام يريد اليمن، وخرج عبدالله بن يحيى الكندي الخارجي من صنعاء، فالتقوا بناحية الطائف وأرض جرش فكانت بينهم حرب عظيمة، قتل فيها عبدالله بن يحيى^(١) وأكثر من كان معه من الإباضية، ولحق بقية الخوارج ببلاد حضر موت، فأكثر أهلها إباضية إلى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة، ولا فرق بينهم وبين من بعمان من الخوارج في هذا الوقت^(٢).

ابن الأثير :

قال ابن الأثير في تاريخه الكامل في حوادث سنة ١٢٨هـ: كان اسم أبي حمزة الخارجي المختار بن عوف الأزدي السلمي البصري، وكان أول أمره أنه كان من الخوارج الإباضية يوافي كل سنة مكة ويدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد، فلم يزل كذلك حتى وافى عبدالله بن يحيى المعروف طالب الحق في آخر سنة ثمان وعشرين، فقال له: يا رجل أسمع كلاماً حسناً، وأراك تدعو إلى حق، فانطلق معي فإني رجل مطاع في

(١) ذكر المسودي قبل هذا الكلام أن عبدالله بن يحيى سمي نفسه طالب الحق.

(٢) ص ١٦٧، ج ٣، من تاريخ المسودي بمروج الذهب، والطبوع بهامش نفع الطب سنة ١٣٠٢هـ بالطبعة الأزهرية بمصر.

قومي، فخرج حتى ورد حضر موت فبايعه أبو حمزة على الخلافة، ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان. وقال في حوادث سنة ١٢٩هـ: وفي هذه السنة قدم أبو حمزة بلخ بن عقبة الأزدي الخارجي الحجج من قبل عبدالله بن يحيى طالب الحق محكماً للخلاف على مروان بن محمد، فيسما الناس بعرفة ما شعروا إلا وقد طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رؤوس الرماح وهم سبعمائة، ففرغ الناس حينما رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان. وذكر في حوادث سنة ١٣٠ بقية أخبار أبي حمزة وقته وقتل طالب الحق^(١).

ابن خلدون :

قال في تاريخه: كان اسم أبي حمزة الخارجي المختار بن عوف الأزدي البصري، وكان من الخوارج الإباضية، وكان يوافي مكة كل موسم يدعو إلى خلاف مروان. وجاء عبدالله بن يحيى المعروف بطالب الحق سنة ١٢٨هـ وهو من حضر موت، فقال له انطلق معي فإني مطاع في قومي فانطلق معه إلى حضر موت وبايعه على الخلافة. وبعثه عبدالله سنة ١٢٩هـ مع بلخ بن عقب الأزدي في سبعمائة، فقدموا مكة وحكموا بالموقف، وعامل المدينة يومئذ عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك. وذكر ابن خلدون قتل أبي حمزة وانهزام الخوارج بوادي القرى، وقتل طالب الحق بعد ذلك^(٢).

(١) ص ١٦٦، ١٦٧، ١٨٥، ١٨٦، ج ٥، من ابن الأثير طبعة أولى بالمطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣١٠هـ.

(٢) ابن خلدون (١٢٧/٣).

وساق في آخر الباب كلمته عن انقراض كلمة الخوارج بالشام والعراق إلى أن قال: إلا ما كان من خوارج البربر بأفريقية، فإن دعوة الخارجية فشت فيهم ثم فشت دعوة الإباضية والصغرية. إلى قوله: وبقيت آثار نخلتهم في أعقاب البربر، ثم قال بعد ما تقدم: وكان بنواحي البحرين وعمان إلى حضر موت وشرقي اليمن ونواحي الموصل آثار تفشى وعروق في كل دولة.

ونختم ابن خلدون الباب بهذه الجملة: ويقال إن باليمن لهذا العهد شعبة من هذه الدعوة ببلاد حضر موت (أي عهد المؤلف في النصف الأخير من القرن الثامن)، والله يضل ويهدي من يشاء^(١).

ونقل ابن خلدون عن ابن حوقل ما نصه: ويسكنها (أي الشحر)، وهو ثم حضر موت الساحلي) بعدهم مهرة من حضر موت أو من قضاة. إلى أن قال: ودينهم الخارجية على رأي الإباضية منهم^(٢).

مقارنة بين أقوال الشلي وأقوال هزلء المؤرخين :

ينسب صاحب جريدة «الهدى» الشلي صاحب المشرع الروي في مناقب بن علوي، إلى أنه لا يكتب لمجرد التدوين التاريخي، وأن صفته التحامل والتحزب فيما يكتب، وحن مضطرون هنا إلى نقل ما أورده الشلي بهذا الصدد مما يجعله محوراً للاستشهاد على تحامل العلويين الذي ما زلنا نجعله، ونجهل كثيراً الطرف المقصود به في هذا المقام.

(١) ابن خلدون (٣/١٧٠).

(٢) ابن خلدون (٤/٢٢٧).

حضرموت

قال الشلي رحمه الله: ثم في سنة تسع وعشرين ومائة استولى على هذا الإقليم طالب الحق عبدالله بن يحيى الكندي الأعور، واجتمع عليه الخوارج، ثم سار إلى صنعاء واستولى عليها فجبي الأموال وجهاز إلى مكة عشرة آلاف وغلبوا عليها، ولما سمع بخبرهم مروان بن محمد - وكان بالمدينة - جهز عليهم، والتقى الجمعان بقديد في صفر فانهزم أصحاب مروان وقتل منهم ثلاثمائة نفر من قريش منهم: حمزة بن مصعب بن الزبير، وابنه عمارة، وابن أخيه مصعب بن عكاشة، وأمين بن عبدالله، وعمرو بن عثمان. وقتل من بني أسد أربعون، وفيه يقول النابغة:

ما للزمان وما إليه
أفتسى قديد رجاله

ثم بعث مروان بن محمد أربعة آلاف عليهم عبدالملك بن عطية السعدي، والتقوا مع أصحاب طالب الحق بمكة المشرفة، فانتصر أصحاب مروان، وقتلوا أصحاب طالب الحق، فلما بلغه ذلك أقبل من اليمن في ثلاثين ألفاً، وسار ابن عنية لقتاله فالتقوا ثانياً، ودام القتال حتى قتل طالب الحق وقتل معه ألف حضرمي وبعث برؤوسهم^(١) إلى مروان. ثم قال بعد كلام لا علاقة له بالموضوع: ولم تزل الإباضية ظاهرين في هذا الإقليم وشوكتهم قائمة إلى أن قدم المهاجر إلى الله تعالى أحمد بن عيسى^(٢) (وساق نسب المهاجر) فظهر الله به البدع والضلال بما أورده من صحيح

(١) نقل ابن الأثير في الكامل قتل طالب الحق وحمل رأسه إلى مروان.

(٢) هاجر المهاجر إلى حضرموت سنة ٣١٧ هـ بطريق الحجاز واليمن، ووصلها حوالي سنة ٣١٩ هـ، وتوفي بها سنة ٣٤٥ هـ.

حضرموت

الاستدلال، وأحياء به ونشره بعدما أماته وأقبره. ثم تلاه الشيخ سالم^(١) فأنزل البدعة إلى أنزل رتبته، ونشر العلوم وأظهر فضيلتها. ثم عززهما الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم^(٢) فقدس به ذلك الوادي، وأسس على التقوى مسجد ذلك النادي، فإظهر في هذا الإقليم عقائد أهل السنة والجماعة، وأحيا العلوم على الصراط المستقيم، فاصداً بذلك وجه الله الكريم.

وقال في موضع آخر: لما وصل السيد الإمام أحمد بن عيسى تلك الديار قصدته الأخبار، وعملت المطي إليه من أقصى القفار، ودخلت الخوارج تحت الطاعة، وعلمت الإباضية أن ليس لهم بأهل السنة استطاعة، وقام بنصرة السنة حتى استقامت بعد اضمحلال، وأظهر إمامه الإمام الشافعي بشر مذهبه، وأقعد النسب الهاشمي في علياء رتبه، وتاب على يده خلق كثير، ورجع عن البدعة إلى السنة جم غفير، بعد أن ركبوا الصعب والذلول في تشتيت شمله والله يجمعه، واجتهدوا في خفض مناره والله يرفعه^(٣).

هذا هو ما أورده صاحب المشرع بصدد عهد الإباضية بحضرموت وكيف كان دخولها إليها، وكيف تمت إبادتها في عهد العلويين.

(١) الشيخ سالم: هو سالم بن بصري ترجمه الطيب بانخرمه في الجزء الثاني من تاريخه فقال: سالم بن بصري بن عبدالله بن أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن جعفر الصادق إلى آخر نسبه، ثم قال: وبصري المذكور هو أخو علوي بن عبدالله بن أحمد بن عيسى جد الأشراف آل أبي علوي؛ وذكر أنه توفي سنة ٦٠٤ هـ هجرية.

(٢) توفي الفقيه المقدم رضي الله عنه، ونفع به بترجم سنة ٤٥٣ هـ.

(٣) المشرع الردي (١/١٢٧، ١٥٤، ١٥٥).

رأي مفتي حضرموت (١)

السيد عبدالرحمن بن عبدالله السقاف (٢)

فيما دار بين عزام باشا والسيد محمد بهجت الأثري :

كان السيد محمد بهجت الأثري قد ناقش رأياً ورد في كتاب عزام باشا (الرسالة الخالدة) حول مسألة العدول عن النص إيثاراً للمصلحة. ونشرت هذه المناقشة في العدد ٧١٢ من مجلة الرسالة. وقد اطلع على هذه المناقشة السيد محمد عبدالقادر بامطرف من المكلا بحضرموت، وعرضها على العلامة السيد عبدالرحمن بن عبيدالله مفتي الديار الحضرمية. فأرسل رأيه في الموضوع وهذا هو :

(١) نشرت في مجلة الرسالة العددان: ٧٦١ (٢ فبراير ١٩٤٨م) و٧٦٢ (٩ فبراير ١٩٤٨م) القاهرة.

(٢) السيد العلامة: عبدالرحمن بن عبدالله السقاف (١٢٩٩ - ١٣٧٥هـ)، ولد في بلدة سيون بحضرموت، نشأ في أحضان والده العلامة: عبيدالله بن محسن المعدود من كبار رجال الخير والصلاح، كان قروي المحافظة، مجتهداً في طلب العلم، أخذ عن كثير من شيوخ وقته، ومنهم والده، والسيد علوي بن عبدالرحمن السقاف الذي كلفه بالتدريس في مناهج الإمام النووي وشروحه، وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، دفعه علمه إلى الاتصال بالدولة التركية (الدولة العلية)، وكانت بينه وبين الوزير محمود نديم باشا والأمير علي سعيد باشا اتصالات ومكاتبات، كما اتصل بالإمام يحيى حميد الدين، وكانت بينهما لقاءات متعددة وقصائد متبادلة، وسافر إلى حيدرآباد الدكن سنة ١٣٤٩هـ، وأقام له رئيس الوزراء مآدبة فاخرة حضرها سائر الأمراء والأعيان، وكانت له اتصالات بالأمير جمال الدين محمد علي الإدرسي سنة ١٣٢٤هـ، وبالسيد يوسف بن أحمد الزواوي بمسقط (عمان) وبالمملك عبدالعزيز بن سعود، سافر إلى جاوا عام ١٩٢٨م ساعياً للصلح بين الحضارم في جزائر الهند الغربية عندما اشتد الخلاف بين الصلويين والإرشاديين وقوبل بخفاوة بالغة، وقام بتأليف العديد من المصنفات في شتى العلوم وكلها تحمل في طياتها روحاً قوية، وبلاغة في تمييزاتها، منها: (العود الهندي عن مجالس في ديوان الكندي)، (بضائع الثابت في نسف من تاريخ حضرموت)، (صوب الركام في تحقيق الأحكام) ومؤلفات أخرى، وله ديوان شعر مطبوع. (م . ب . ح)

الجواب والله الموفق للصواب أن الحق فيما ظهر لي كان في جانب الأستاذ عبدالرحمن عزام ، ولكني رأيت سلك من الإنصاف ما لا يلزمه حتى أقله إذ لم يزل مع الصواب في قرن فهو في مياسره الدالة على طيب النية وصدق الإخلاص شبيه بذي الرمة إذ ورد الكوفة فاعترضه ابن شبرمة في قوله :

إذا غير النأي المجهين لريكد
رسيس الهوى من حب مية يبرح

وقال إنه يدل على زوال رسيس الهوى لأن نفسي كاد للإثبات فلم ينفصل وقد قال عنبه حدث أبي بذلك فقال أخطأ ابن شبرمة . وكان لذي الرمة الانفصال إنما هو كقوله تعالى : ﴿ لم يكذبهاها ﴾ والمعنى أنه لم يرها وهذه شبيهة بتلك ، وليس الأستاذ بأول من قال بالعدول عن النص إثاراً للمصلحة العامة بل له في ذلك السلف الطيب من السادة المالكية والحنفية والشافعية وحسه من الخنابلة قول أحد أئمتهم ، وهو العلامة ابن تيمية في منهاج السنة ، أن الله بعث رسوله ﷺ بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها . ا هـ .

وقال الشوكاني : في المسألة مذاهب المنع مطلقاً وعليه الجمهور ، والجواز مطلقاً ، أي وإن خالف المنقول ، وهو المحكي عن مالك ، والثالث إن كانت المصلحة ملائمة لأصل كلي أو جزئي من أصول الشرع جاز العمل بها وإلا فلا ، قال ابن برهان وهو الحق المختار ، والرابع إن كانت المصلحة طردية قطعية كلية كانت معتبرة وإلا فلا ، واختاره الغزالي والبيضاوي . ا هـ .

ولن يعوز الأستاذ عزام المبرر ولا سيما من الثاني والثالث ، وإشهاد الخليفة الثاني بمراجعاتها أظهر من ابن جلا ، بل هو قطب تلك القاعدة فلا معنى لاستنكارها ، وذلك الخليفة الجليل نقطة بيكارها ، وسنذكر عنه من مثلها ما يشاء الله أن نذكر منها ما استدل به الأستاذ عزام من قضية الخراج ، فقد عدل ابن الخطاب عن الآية المحكمة فيه وهي قوله جل ذكره : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾ . وقد قال الأكترون ومنهم الشافعية إنما فتح السواد عنوة فكان غنيمة لا نيتاً . أما ما نقله الأستاذ الأثري عن أبي يوسف عن ابن الخطاب من احتجاجه على منازعه بآيات الحشر فإنه على الأستاذ لا له . أما أولاً فلأن آيات الحشر صريحة في الشيء الذي لا يجاف فيه بخيل ولا ركاب لا في الغنيمة وبينهما بعد المشرقين . وأما ثانياً فإن الشافعية يتأولون لابن الخطاب تأويلين أحدهما ما ذكره شراح المنهاج بأنه قسمه بين الغنائم ومنهم أولو القربى ، ثم استمال قلوبهم فبدلوه له فوقفه على المسلمين ، ولكن ما نقله الأستاذ الأثري من احتجاج ابن الخطاب بآيات الحشر يقطع خط الرجعة على هذا التأويل ؛ لأنه لو كان لم يكن للاحتجاج بتلك الآيات معنى .

وثانيهما ما ذكره الماوردي في " الحاوي " وأبو الطيب الطبري في " شرح المزني " أن عمر عوّض الغنائم من أرض السواد ووقفه على السلمين وهو مثل سابقه ، ومن أين لابن الخطاب ما يعوضهم به حيثنذ

عن تلك الأرض الطويلة العريضة وهو الذي لا يدع في بيت المال صفراء ولا بيضاء إلا تبرأ منها إلى من يستحق؟ وقال قدامة بن جعفر في كتاب الخراج: اختلف الفقهاء في أرض السواد فقال بعض: تخمس ثم تقسم الأربعة الأقسام على الفاتحين كما فعل صلى الله عليه وسلم بخيبر لأية الأنتال المحكمة في ذلك، وقال بعضهم: إنها إلى رأي الإمام، إن شاء جعلها غنيمة وإن شاء جعلها فنياً كما فعل عمر بأرض السواد وأرض مصر. انتهى مختصراً.

وهذا أيضاً لا يتناسب مع ما نقله العلامة الأثري من احتجاج ابن الخطاب بآيات الحشر وقال ابن جرير أن عمر هم أن يقسم أرض السواد بين الغانمين كما تقسم الغنائم ثم قال كيف بالأجام ومنابع المياه والغياض والهضب المرتفع والغائط المنخفض؟ وكيف يصنع هؤلاء بالماء وقسمته؟ أخاف أن يضرب بعضهم وجوه بعض. ثم جمع الغانمين فقال لهم: ذلك فرضوا أن تقرر الأرض حبيسا لهم يولونها من تراضوا عليها ثم يقتسمون غلتها في كل عام، فقال عمر اللهم إني قد اجتهدت وقد قضيت ما علي، اللهم إني أشهدك عليهم فاشهد. اهـ.

وهو صريح في أنه إنما جمع الغانمين ليتلو عليهم ما رآه وما أداه إليه اجتهاده. وهو من أقوى الأدلة لما ذهب إليه الأستاذ حزام في أن ابن الخطاب إذا وقف به الأمر بين المصلحة والدليل كان من اجتهاده إثارة عليه لاحتماله التخصيص والتأويل بخلافها. وأما قول ابن جرير: إنهم رضوا فبعيد جداً مع كثرتهم وغيبة كثير من أولى القربى المشروط رضاهم

مع شح الأنفس بالأموال بل قد أشار الأستاذ الأثري إلى حصول نزاع بين ابن الخطاب وبعض الصحابة في ذلك مما يدفع ادعاء الرضى، وقال ابن القيم: وتنازع في ذلك بلال وأصحابه فطلبوا منه أن يقسم بينهم الأرض التي فتحوها فقال عمر: هذا غير المال ولكن أحبسه فنياً يجري عليكم وعلى المسلمين، فقال بلال وأصحابه: أقسمها بيننا. فقال عمر: اللهم اكفني بلالاً وذويه، فما حال الحول وفيهم عين تطرف، ثم وافق سائر الصحابة على ذلك، وكذلك جرى في فتوح مصر والعراق وأرض فارس وسائر البلاد التي فتحت عنوة، لم يقسم منها الخلفاء الراشدون قرية واحدة ولا يصح أن يقال أنه استطاب نفوسهم ووقفها برضاهم، فإنهم قد نازعوه في ذلك وهو يأبى عليهم، ثم قال - أعني ابن القيم - وليس هذا الذي فعله عمر رضي الله عنه بمخالف للقرآن، فإن الأرض ليست من الغنائم التي أمر الله بتخمسها وقسمتها.

وقوله إن الأرض ليست من الغنائم مبني على قول ابن الخطاب أن الأرض ليست من المال، ولكنه مخالف للحقيقة اللغوية، وإن أخذ به السادة الخنابلة كما في المقنع وغيره من كتبهم أن المسلمين إذا غنموا أرضاً فتحوها بالسيف وخير الإمام بين قسمتها ووقفها على المسلمين، وذهب مالك إلى أن الأرض المغنومة لا تقسم بل تكون وقفاً يصرف خراجها في مصالح المسلمين، وقالت الحنفية بتخيير الإمام بين أن يقسمها بين الغانمين وأن يقرها لأربابها على خراج أن ينتزعها منهم ويقرها مع آخرين. وذهبت الشافعية إلى أن الغانمين يملكونها بانقضاء الحرب وهم أسعد القوم في هذه

الغضبة بالدليل، وعليه فدعاء ابن الخطاب بلالاً وأصحابه كان بدون مبرر وقد أخرج البخاري عن عمر أنه قال: أما والذي نفسي بيده لولا أن أترك آخر الناس ليس لهم من شيء ما فتحت على قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير. قال الشوكاني فيه تصريح بما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم، إلا أنه عارض ذلك عنده حسن النظر لآخر المسلمين فيما يتعلق بالأرض خاصة فوقها عليهم.

ولو لم يكن إلا هذا وحده لكفى مبرراً لقول عزام ورد كلام الأثرى وهو نص جلي فيما قدمناه فله الحمد على الهداية، ولم يذكر ابن القيم احتجاج عمر بآيات الحشر لأنها لاتصلح للغنيمة، وإنما جرى ابن الخطاب في السواد على النص ما اشتهر من قوله: (متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا أنهي عنهما وأعاقب عليهما) فإنه ظاهر المصادمة للنص، وقد حاولوا بجواب عنه فلم يأتوا إلا بالتسافه المردود، وذكر ابن خلكان في ترجمة يحيى بن أكثم أن المأمون يسوقه مساق المفتي عليه يقول: ومن أنت يا جعلل حتى تنهى عما أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم... إلى آخر القصة التي يكفيننا منها موضع الشاهد، وهو هذا، وأصله في صحيح مسلم عن جابر قال كنا نستمتع بالقبضة من الدقيق والنمر الأيام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وصدراً من خلافة عمر حتى نهانا عنهما عمر، وبعيد جداً أن يقول ابن الخطاب عنها ذلك القول الغليظ، وهو ذاك النص بدون أدنى إشارة إليه، وإنما جرى منه على انقياد من ترجيح المصلحة، ولابن الخطاب في قضية

المتعة مزية، إذ قد ظهرت النصوص بعد ذلك متظاهرة على تحريمها موافقة لما ذهب إليه، بإصالة رأيه وبعُد نظره، ومنها حديث سيرة الجهني عند مسلم وأبي داود وأحمد، وما يتأكد به أن قول عمر في متعة النساء كافة رأي ارتآه وجمعه إياها ومتعة الحج في سياقه واحدة، وقد أخرج مسلم عن ابن أبي مليكة عن عروة بن الزبير قال لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمر الناس بالعمرة في هؤلاء العشرة، وليس فيها عمرة فقال: أو لا تسأل أمك عن ذلك، قال عروة فإن أبا بكر وعمر لم يفعلوا ذلك، فقال الرجل: من هاهنا هلكتم، ما أرى الله عز وجل إلا سيغذّبكم، إني أحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخبروني بأبي بكر وعمر... والحديث أطول من هذا، والرجل هو ابن عباس، وله شواهد كثيرة وحسبنا منها أن قول عمر في متعة الحج كان برأيه المخالف للنص، والمصلحة التي رآها في ذلك هي كرهه لأن يدخل الناس في الحج ومذاكيرهم تقطر؛ لأن الرفيعة لتليف باخشيشان النسك. وقول ابن عباس لعروة أو لا تسأل أمك النسب بمتعة النساء وله قصة طويلة مذكورة في السير، ولكن لعل الحديث اختصر فانتقل النظر، ولا ينكر أحد أن عمراً رضي الله عنه كان وقافاً عند كتاب الله ولكن إذا استنار له الدليل، وإلا فإنه يذهب عند ظهور المصلحة إلى التأويل، ولعل منه قياس الغنيمة على الفيء إن صح احتجاجه بآيات الحشر الذي ذكره غير واحد سوى من سماهم الأستاذ الأثرى.

وحبك بما جرى منه يوم الحديبية، فإنه لم يقل كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولو وجد أعواناً لرده وخرج مغضباً ثم لم تنكسر سورة غضبه إلا عند انقطاع الحيلة وتعقب مراجعات له من أبي بكر طويلاً، وعذره في ذلك شدة غيرته على الدين، ومنها إشفاقه عليه وقوة شكيته وصلابة عوده في الحق ورحمة إخلاصه لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فجرى على سجيته العربية من خشونة اللفظ مع نسيان التحفظ تحت تلك التأثيرات، ولو قالها غيره لطمعاً فيه، أما هو فعلى حد قوله:

ويفتح من سواك التعل عندني فتفعله فيحسن منك ذاكا

وهل فوق هذا دليل على أن ابن الخطاب يسير مع ما يراه من المصلحة للإسلام وإن حادت عن النص الخاص العام، ولقد فعل يوم مات ابن أبي من اعتراضه على رسول الله ﷺ وجذبه بثوبه ما هو معلوم، وكان له في ذلك منقبة إذ نزل الذكر الحكيم بموافقته بعد، وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لهم يوم اشتد وجعه اتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، فمنع عمر فليس في ذلك إيثار للمصلحة التي رآها على النص الصريح بلى وألف بلى. فمرحى للأستاذ عزام مرحى إذ ألهمه الصواب من أوحى إلى عبده ما أوحى، وأكبر من هذا كله ما جاء في التمدن الإسلامي ص ٢١٧ ج ١ طبعة ثالثة من ص ١٢١ ج ٢ من خطط المقرئ من تقرير ابن الخطاب للمكوس في الإسلام مع مصادمة ذلك للنصوص، حتى لقد قال بعض الشافعية أن استحلال المكس كفر، ونقل العصامي في تاريخه عن قطب الدين النهرواني أن الألسنة انطلقت بالوقعة في القضاة

الأربعة بالقاهرة الذين أفتوا بحل المكس في جدة، وقالوا إنهم اعتمدوا هوى الملك حفظاً لمناصبهم.

وما أخطأ صاحب التمدن إلا في تعيين الصفحة والجزء من الخطب وإلا فقد جاء في ص ١٦٦ منها - وأصل ذلك في الإسلام - أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلغه أن تجاراً من المسلمين يأتون أرض الجند فيأخذون منهم العشر، فكتب إلى أبي موسى الأشعري وهو على البصرة أن خذ من كل تاجر يمر بك من المسلمين من كل مائتي درهم خمسة دراهم، وخذ من كل تاجر من تجار العهد من كل عشرين درهماً درهماً، ومن تجار الحرب من كل عشرة دراهم درهماً، ونهى عمر بن عبدالعزيز عن ذلك، وكتب ضعوا عن الناس هذه المكوس فليس بالمكس ولكنه البخس.

ومن تلك الأمثال ما رواه طاوس عن ابن عباس قال كان طلاق الثلاث واحدة على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، وستين من خلافة عمر، فقال عمر بن الخطاب إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيته عليهم، فأمضاه عليهم. رواه أحمد ومسلم وفي لفظ آخر رواه مسلم. فلما كان في عهد عمر تتابع الناس في الطلاق فاجازه عليه، وفي آخر رواه مسلم أيضاً أن عمر قال أجزوهن عليهم، رواه أبو داود. وكنت استنكر القول بأن الثلاث واحدة لما حصل من تشجيع العلماء على ابن القيم وشيخه في اختيار ذلك ولأن الحنابلة على اعترافهم بفضل هذين الشيخين لم يوافقوهما على ذلك، ولأن الأئمة الأربعة على

خلافه حتى رأيت العلامة الشوكاني يبالغ في تأييده، ويعد من الاجلاء من يقول به، والإمام الرازي يقول في تفسير آية الطلاق من البقرة أنه الأئیس، وبلغني أن من لا يشك في دينه من الحضارمة يقره، فرجعت عما كنت عليه فيه، ومعاذ الله أن نقول أن ابن الخطاب أو من دونه من العلماء القائلين بالاستصلاح يقصدون مراعاة النصوص الشرعية، إنا إذا نظرنا ولكنهم إذا ظهرت المصلحة المحققة رجحوها متحيزين إلى النصوص العامة في ذلك كقوله جل ذكره: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ وقوله: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾، وأمثالها مما لا يحصى، وفي الصحيح «يسراً ولا تعسراً»، ومن أساطين الشريعة ما أخرجه ابن ماجه مرفوعاً «لا ضرر ولا ضرار»، ولقد أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أن ينزل بيد مرتلاً لم يره الأنصار موافقاً للقتال فخالفوه فرجع إلى رأيهم، وقال للأنصار عام قدومه المدينة «ما يضركم أن لا تؤبروا» فخرج نخل المدينة شيصاً فقال لهم: «أنتم أعرف بديناكم». واتفق أصحاب السير على أنه عليه السلام عزم على أن يصلح رئيسي غطفان عيينة بن حصن والحارث بن عوف على أن ينصرفا بقومهما في حادثة الأحزاب ولهما ثلث ثمار المدينة، ثم شاوور السعدين بعد تمام المروضة فقالا إن يكن الله أمرك فسمعا وطاعة، وإن كنت إنما تريد أن تصنع لنا بذلك فلا حاجة لنا به، فرجع إلى قولهما. ووجه الدلالة فيه من جهتين أن النبي أراد التصرف في أموال الأنصار بدون استرضائهم كلهم للمصلحة، وأن السعدين خالفاه للمصلحة أيضاً فرجع إلى رأيهما، وأكبر من ذلك ما أخرجه مسلم عن عمران بن

حصن أنه صلى الله عليه وسلم أخذ رجلاً من غفار بجريرة حلفائه من تئيف وما كان إلا من أجل المصلحة، وإلا فالباري جل شأنه يقول في غير موضع من التنزيل: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، ويقول عن العبد الصالح ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون﴾. وقالت الصديقة عائشة لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء بعده لمنهن المساجد أو ما يقرب منه، وقال ابن عبدالسلام لله أحكام تحدث عند وجود أسبابه، وقال بعض الأئمة يحدث للناس من الأحكام بقدر ما أحدثوا من الفجور، وقال بعض متأخري الشافعية: الشرع مبني على درء المفسد وجلب المصالح، بل لو كان حكم شرعي يخالف العادة ترك للعادة سداً للذريعة المؤدية إلى الشقاق والعداوة التي لا ينقطع بابها إذا فتح ولا يسد.

ولئن كنت ناقشته في بعض كتبي الفقهية لتقيدي في الفتوى بمقول الذهب فلا بأس أن أستدل به هنا للاستصلاح، لفرق ما بين الجهتين لاسيما وقد رجحه علامة اليمن الحبر البديل شيخ شيخنا^(١) السيد عبدالرحمن بن سليمان الأهدل فيما ذهب إليه من تقوية كلام العلامة ابن زياد في نفس الموضوع، وقال كثير من العلماء كالحنفية بالاستحسان، وفسر بدليل ينقدح في نفس المجتهد تقصر عنه عبارته، وفسر أيضاً بعدول عن الدليل إلى العادة للمصلحة، ومن المقرر بين الأصوليين - حتى في

(١) أما أخذت عن الأستاذ الأبر عبديوس بن عمر، وقد مات سنة ١٣١٤هـ، وأنا على تمام الرابعة عشر من عمري، وقد أخذ عن السيد عبدالرحمن بن سليمان الترمذي سنة ١٣٥٠هـ، وعمر الأستاذ الأبر ذاك أربعة عشر عاماً، وقد صرح بأخذه عنه في مواضع من كتابه عقود اللال.

المتون - جواز التخصيص بالعقل، وليس الاستصلاح عند مصادمة الدليل إلا من ذلك القبيل، وعلى خاطري أن بعض الصحابة أحرم صلاة المغرب فانفلتت راحلته فذهب وراءها حتى ردها وعقلها فعاد إلى مكانه وأتم صلاته فقيل له فقال: أددع ناقتي تضيع وأنا شيخ ضعيف؟ ولقد غزوت مع رسول الله ﷺ كذا وكذا غزوة فرأيت من تيسيره ما يتسع لأكثر من عملي هذا أو ما يقرب من هذا أو ما هذا نخيله، وهو من الثابت وقد ذكرته في بعض كتبي ولكني لا أدري أين مكانه الآن. فترى هذا الصحابي رضوان الله عليه تجاوز النصوص الخاصة في منع الأعمال في الصلاة إلى الدليل العام من التيسير، ولكل ما فعله مبرر من الفقه عندنا إلا عوده إلى مكانه الأول إن ثبت، وإلا فقد قال في التحفة من أخذ له مال في الصلاة لا يجوز له أن يبقى فيها ويتبعه ويصليها صلاة شدة لخوف على الأوجه بل يقطعها ويتبعه إن شاء.

ومقابل الأوجه الجواز وهو مما يسوغ العمل به في حق النفس والشريعة كما سبق مبنية على حفظ المصالح ودرء المفاسد. فليس الاستاذ عزام بالأوحد في هذه الطريقة ولكنها المهيبة الواضح والسبيل العظيم، وقد أطلت القول في ذلك لبعض المناسبات التاريخية في كتابي "بضايح التابوت في تنف من تاريخ حضرموت"^(١) المنوي تقديمه للطبع بهمة الشاب الفاضل الأديب عبدالله عمر بلخير، ونسيت وما أنساني إلا الشيطان أن أذكر فيه ما

(١) الكتاب مؤلف ضخم في تاريخ حضرموت يزيد عن ألفي صفحة، لم يطبع - للأسف - إلى اليوم رغم مضي ما يقرب من نصف قرن على تأليفه، ولا يزال محفوظاً لدى ورثته يتصرخ بهمهم والضمائر العلمية الحية.

يصلح لأن يكون أكبر شاهد للاستصلاح وهو قوله جل ثناؤه في سورة الأحزاب ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾. إذ لو لم يضمن دينه حماية العدل والنظام إلى يوم البعث والقيام بقوله للمصالح، لما انقطعت النبوة، ولبقيت الحاجة شديدة إليها، لكنها انتهت فلم يبق للرسالة معنى بعد انقضائها؛ لأن هذا الدين المتين ملائم لكل زمان ومكان، وإن اختلفت الأحوال واضطربت الأمور، وأرجحت الفتن، وتقلبت الظروف، وتباينت المؤثرات فلا حاجة مع لطف مرونته واتساع صدره وغزارة مواده وفضيلة قابليته إلى قانون سواء يتجدد لحفظ النظام ونفع الأنام مع مسابرة الأيام. ومن هذا تعرف بديع مناسبة الفاصلة؛ لأن العلم واسع لن يضيق بأية حادثة تعرض له في مستقبل الزمان وإن انقطع سلاها واطلختم دجاها، ولذا كان سهم بن الخطاب هو الصائب وفكره هو الثاقب وحزمه يطبق المفاصل، وكثيراً ما يصف الباري نفسه في الفواصل بأنه واسع عليم وواسع حكيم، أفترض تلك السعة التي بالغ فيها التنزيل عن مصلحة كلية إزاء دليل جزئي محتمل لنفوذ التخصيص إليه بالمنفصل من كل ناحية؟ لا والله، فإن هذا ما لا يكون، ولئن فاتني هذا الدليل في كتابي بضايح التابوت فلم يكن لدى بضائع إذ كم عاجلت به من مريض وتعرضت له في النثر والقريض وكررت به بالتصريح والتعريض، حتى لقد قلت من القصيدة النبوية التي أنشأتها في سنة ١٣٦٠هـ على نهج البردة الشريفة:

وما يغبر الذي نقض شريعته
 إذ لا يوازيه دين في عدالته
 أما شريعة عيسى فالنجاه بها
 مع التمدن شيء غير ملتمس
 والله جل شأنه يقول: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ ، ويقول:
 ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ . وهل يمكن مع تقدم
 الطب بهذه الأيام أن يتأخر الطب الذي بعث به عليه السلام أو أن يعجز
 عن مكافحة بعض الآلام؟ كلا إنه لينقطع دون هذا الكلام، لكن الجمود
 حجاب، وداعي التقليد الأعمى لا يجاب، وإنما يستحق الفهم كما في آية
 سليمان الإعجاب، وبعض هذا كان للإلزام بما قاله الشيخ عزام، ولئن لم
 نطلع على رسالته بحذافيرها فقد أنبأنا تلك الجمل بأخبارها، والله أعلم.
 قال وأملاه خادم العلم ابن عبيدالله في ٥ القعدة سنة ١٣٦٦هـ.

المعاهد الدينية في حضرموت

وأثرها في الحياة الثقافية (١)

للأستاذ: علوي عبدالله طاهر (٢)

ارتبطت الحياة الثقافية في حضرموت بعلماء الدين وازدهرت بازدهار
 المعاهد الدينية التي كانت منتشرة في معظم مدن حضرموت، فقد كانت
 مدن حضرموت مشهورة بكثرة مساجدها ومعاهدها الدينية وأربطتها
 وكتابتها مثل: تريم وشبام وسيئون والهجرين والشحر وغيل باوزير ودوعن
 وعمد وقيدون والغرفة والحوطة . . وغيرها.

وكانت زوايا التعليم ومواضع التدريس في مطلع القرن العشرين في
 حضرموت كثيرة، يرتادها الطلبة لدراسة علوم الفقه والنحو والحديث
 والتفسير والفرائض . . وغيرها من العلوم الدينية.

وكانت هذه الزوايا أو المعاهد تنسب إلى القائمين بالتدريس فيها أو إلى
 مؤسسيها أو إلى المسجد الذي توجد فيه .

وكان يوجد في هذه الزوايا أو المعاهد أو الأربطة أساتذة أجلاء من
 علماء الدين الذين انقطعوا للتدريس ونشر العلوم الدينية، فكانوا يعقدون
 الحلقات في المساجد أو المعاهد الدينية أو في البيوت أو الأربطة.

(١) مجلة (الإكليل) اليمنية، الأعداد ١، ٣، ٤، ٤ - ١٩٨٨م، صنعاء.

(٢) علوي عبدالله طاهر - كاتب وباحث بمني معاصره، يعمل أستاذاً بكلية الشريعة بجامعة عدن، له عدة
 أبحاث ومؤلفات مطبوعة ومخطوطة في التراث والتاريخ اليمني وخاصة وجهه الثقافي.

وكانت هذه المعاهد ينقصها النظام والتخطيط السليم، وهي متخصصة بتدريس العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والأصول والفقه والتصوف والمنطق والفرائض والحساب والفلك والميقات والعروض وعلم النحو والصرف والمعاني والبيان والبدیع . . . وغيرها، ولا يتجاوز التعليم فيها المراحل المتوسطة إلا في المعاهد الشرعية كالأربطة التي توصل طلابها إلى مستوى عال من الثقافة والعلوم الدينية، لا يقل مستواهم عن مستوى خريجي الجامع الأزهر الشريف في القاهرة.

وحول مستوى هذه المعاهد يحدثنا الأستاذ المؤرخ محمد بن أحمد الشاطري قائلاً:

«ولا نغالي إذا قلنا إن كثيرين من خريجي المعاهد الشرعية الحضرية يفوقون علماء الأزهر الشريف في فقه الشافعي والتاريخ الإسلامي وفي النحو والصرف، وهي الفنون التي كثيراً ما يتخصص فيها علماء حضر موت»^(١).

وكان الطالب في هذه المعاهد ملزماً بحفظ واستظهار بعض النون والرسائل الصغيرة والمنظومات العلمية مثل: «التنبيه والمنهاج والإرشاد والحاوي والشاطبية والجزرية، وألفية العراقي في أصول الحديث والفقه، وألفية ابن مالك في النحو، والملحة والقطر والأجرومية والأربعون النووية . . . وغيرها»^(٢).

(١) محمد بن أحمد الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (٢١٢/٢).

(٢) سعيد عوض باوزير، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، ص ٩٠.

وانشرت بينهم كتب التفسير والفقه والحديث والفلسفة . . . وغيرها، مثل: «تفسير البغوي والبيضاوي والصحيحان للبخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والأربعون النووية والشفاء للقاضي عياش وشرحه، وجامع المختصرات للنسائي وكتاب إحياء علوم الدين للغزالي وقوت القلوب لأبي طالب المكي، وعوارف العوارف للهروودي»^(١).

وكان علماء حضر موت مولعين بكتب الغزالي كالأحياء والوسيط والوسيط والجدير، ويكررون قراءتها المرة بعد الأخرى، وينسخونها بأيديهم ويحتفظون بنسخ منها في مكتباتهم، وكان بعضهم يهتم بقراءة كتب ابن عربي . وحرصاً على سلامة عقيدتهم وإبعادهم عن السلوك التي قد توحى بها بعض عبارات كتب الصوفية الغامضة كانوا لا يسمحون للمبتدئين بقراءتها.

وكان بعض علماء حضر موت قد اعتادوا السفر إلى خارجها فقاموا برحلات إلى بعض المدن اليمنية، مثل: عدن وتعز وزيد وغيرها، والتقوا بعلمائها واستفادوا منهم وأفادوا، كما رحلوا إلى خارج اليمن وسافروا إلى مكة والمدينة وظفار والهند وبلدان السواحل الأفريقية، ورحل بعضهم إلى القدس والشام ومصر، والتقوا بعلمائها، ودرسوا على أيديهم وأخذوا منهم الإجازات الخاصة بالإفتاء والتدريس وكانوا في رحلاتهم يجلسون للتدريس . والإفتاء، ويتصدرون لمناظرة العلماء والبحث معهم، كما اتصل

(١) المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

بالتعاليم الدينية لآداء الشعائر الإسلامية، ومعرفة أساليب المعاملات
بمقتضى هذه التعاليم، وكان الناس يتلقون هذه التعاليم عن طريق حلقات
الدرس العامة التي تعقد عادة في المساجد والمعاهد الدينية، أو من الوعاظ
والمرشدين الذين كانوا يغشون المجتمعات التي يحتشد فيها الناس لآداء
الصلاة أو الاحتفال بالمناسبات والأعياد الدينية، وكان هؤلاء الوعاظ
والمرشدون يحشون الناس على التحلي بالأخلاق الفاضلة ويدعونهم إلى
الالتزام بالحدود الشرعية في سلوكهم ومعاملتهم ويذكرونهم بالله واليوم
الآخر، ولم تتجاوز الثقافة بحال من الأحوال هذه الحدود.

أما في وادي حضرموت وقرائها النائية - حيث لم يصل إليها العلماء
والوعاظ والمرشدون - فقد ظلت محرومة من أي نشاط ثقافي، وكان
الناس في القرى والبوادي يجهلون أبسط القضايا، بما في ذلك مبادئ
الدين الإسلامي الأساسية.

وبالنسبة للمرأة فقد كانت بعيدة كل البعد عن الثقافة والعلم إلا فيما
ندر، وفي حدود ضيقة، لاتتعدى الواجبات الدينية المتصلة بالصلاة
والصوم والأمور المتعلقة بالحيض والنفاس والطهارة . . وغيرها. وكانت
معارف المرأة - حتى في هذه الأمور - محدودة، وتتلقاها - عادة - مشافهة
عن الأب أو الأم أو الزوج أو أحد الأقارب، أو تسمعها من بعض
العلماء التي انحصرت معارفهن في حدود ضيقة من المعارف الأولية في
أثناء حضورهن بعض الحلقات اللاتي كانت تخصص للنساء في المساجد،
أما معارفهن في القراءة والكتابة فكانت معدومة، إذ لم يكن للمرأة من

بعضهم بالملك والوزراء وكبار رجال الحكم في البلدان التي زاروها.

وكانت الكتب في حضرموت غالية الثمن وشحيحة فاضطر المعلمون
إلى خطها بأيديهم، وكانوا يعتمدون على الخطاطين الذين كانوا يطلبون
أجوراً مرتفعة مقابل كل كتاب يخطونه، فأدى ذلك إلى بروز عدد من
الخطاطين.

وظهر في حضرموت بعض الخطاطين المحترفين الذين اهتموا مهنة
الخط، كما ظهر فيها بعض متمهي التجليد مما يدل على حاجة الناس إلى
الكتب والخطاطين لينسخوا لهم الكتب أو المصاحف.

وكان الخط السائد في حضرموت هو خط النسخ الذي كانوا يكتبونه
بالحبر الأسود الذي يصنع محلياً، أما الورق على اختلاف أنواعه فيستورد
من الخارج^(١).

أما الفنون التشكيلية فلم تجد أي اهتمام لأن علماء الدين في
حضر موت لم يسمحوا بذلك، وكانوا يحرمون الرسم والتصوير والنحت،
وكذلك الحال بالنسبة للموسيقى إذ كانوا يحرمون الغناء والموسيقى، وفي
مقابل ذلك انتشرت الأناشيد الدينية والتواشيح التي تتغنى بالرسول الكريم
محمد ﷺ وأولياء الله، كما ظهر نوع آخر من الغناء المحلي الذي يعتمد
على الضرب بالدف والنغ على الشبابة.

لقد كانت الثقافة في حضرموت محصورة في أمور الدين والفقه
والشريعة الإسلامية والتصوف، وكان جل اهتمام المثقفين حينذاك للإمام

(١) المرجع السابق، ص ٩٨.

التعليم أي نصب، فظلت تجهل القراءة والكتابة طوال حياتها.

ولقد استطاعت المعاهد الدينية في حضرموت أن تخرج العديد من الوعاظ والمرشدين الدينيين وخطباء المساجد والقضاة الشرعيين من ذوي الثقافة الدينية الخالصة، ومع ذلك نبغ منهم بعض العلماء والأدباء المشهورين. ويرجع نبوغهم إلى خروج بعضهم إلى خارج حضرموت، وهجرة بعضهم إلى مناطق مختلفة من العالم، حيث التقوا في مهاجرهم بالعلماء والأدباء والمفكرين والمصلحين الاجتماعيين، فأخذوا عنهم علومهم وتأثروا بهم وبأفكارهم، وعندما عادوا إلى بلادهم حملوا معهم رايات الإصلاح والدعوة إلى التعليم وتطوير الثقافة ومحاربة العادات والتقاليد الاجتماعية الضارة التي تتنافى ومبادئ الدين الحنيف.

وسعى هؤلاء العلماء العائدون وغيرهم إلى حث المواطنين على بناء المدارس، وشجعوهم على التبرع بسخاء لصالح تطوير التعليم، وتزويد المدارس بمحتاجاتها، وعملوا على توعية المواطنين وحثوهم على الحاق أبنائهم بالمدارس، فأرسوا بذلك البدايات الصحيحة الأولية للنهضة الثقافية الحديثة في حضرموت.

وشرع هؤلاء العلماء يساندهم بعض الشباب في تنظيم الحلقات العلمية في المساجد والمعاهد الدينية وعملوا على تطوير الأربطة، ودفعوا الناس لحضورها وسعوا لجمع التبرعات من التجار في الخارج، وأشرفوا على تصريف أموال تلك التبرعات للمشاريع الخيرية بما في ذلك التعليم، وكانوا يمنحون معونات مالية للطلاب الذين يتفرغون للدراسة، ويقدمون

بعض المساعدات لرواد الحلقات العلمية ومكافآت للمدرسين فيها. فأحس الناس بأهمية التعليم وبدأوا يتذوقون طعم العلم، وشعروا بأهمية الثقافة، فاقبلوا على القراءة ورغبوا في تطوير مداركهم فافتتروا الكتب ونسخوا المخطوطات، وقرأوا الصحف التي كانت تصلهم من المهاجرين في الخارج، وتعرفوا من خلالها على الأحداث العالمية، فتفاعلوا معها وتأثروا بها وتابعوا ما حصل في العالم من تطورات، وبدأوا يطالبون السلطات المحلية في السلطتين: القعيطية والكثيرية، بإدخال الإصلاحات الضرورية، ويضغطون عليها من أجل فتح المزيد من المدارس والاهتمام بالعلم والثقافة.

وعندما ينس المصلحون من تجارب السلطات المحلية مع مطالبهم، اعتمدوا على أنفسهم والشعب معهم في إصلاح ما يمكن إصلاحه، فشرعوا في تأسيس عدد من النوادي الاجتماعية والجمعيات الخيرية، ليتمكنوا من خلالها من تنظيم الجهود، وتوجيه الأعمال الخيرية لما فيه منفعة الناس ومصلحة المجتمع.

ومن أشهر تلك الجمعيات (جمعية الأخوة والمعونة) في تريم، و(نادي الشباب الثقافي) في المكلا وسيون. ومن أجل إبراز نشاطات بعض تلك النوادي والجمعيات يمكننا أن نفضل القول ببعض الشيء في الحديث عن (جمعية الأخوة والمعونة). كنموذج لبعض النشاطات.

جمعية الأخوة والمعونة بتريم:

تأسست «جمعية الأخوة والمعونة» في مدينة تريم عام ١٣٤٨هـ

١٩٢٩م، وأسماها عدد من المتعلمين برئاسة محمد بن أحمد الشاطري، أهدافها:

- ١ - بث روح التعاون بين أفراد الأمة، ورفض التحزبات وكل ما يؤدي إلى الانفراق والشقاق، والعمل على تكوين روح قوية في الشباب.. تدفعهم إلى القيام بواجبهم نحو الدين وحيال الوطن، وذلك بواسطة الدعاية الصحيحة عن طريق النشر والخطابة والوعظ في المجتمعات، وتيسير أسباب تنوير الأفكار وتثقيف العقول بتحفيز الناس على قراءة الكتب والصحف المفيدة بحسب موثاة الوسائل المادية والأدبية.
- ٢ - بذل الجهد في تربية النشء التربية الكافية بنيل الأغراض والأخذ بتسليحهم بالعلوم والمعارف التي لا بد منها للفوز في معترك الحياة، وتحصل السعادة للفرد والمجتمع في المستقبل القريب والبعيد بفتح المدارس، وإرسال البعثات إلى الخارج لتلقي العلوم والفنون.
- ٣ - نشر التعاليم الإسلامية والآداب الدينية والثقافية ومشاركة القائمين بذلك وجمع التبرعات والاشتراكات المالية التي تحتاج إليها.
- ٤ - جعلت الجمعية تأسيس مقاصدها وأغراضها على الجمع بين الطالب الدينية والدنيوية.
- ٥ - إنشاء مؤسسات اقتصادية يقوم بأعبائها الصالحون للأعمال من رجال الجمعية وغيرهم، وإيجاد وظائف لتوظيف العاطلين من أبناء الوطن.
- ٦ - إصدار صحف سائرة (جرائد ومجلات) لتكون لسان حال

الجمعية ومنبراً من منابر دعائها القائمة على نشر الهداية الإسلامية، وتوسيع مدى الثقافة في حضرموت^(١).

لقد قامت الجمعية في بادئ الأمر على أيدي بعض طلبة المعاهد الدينية بدافع من الحماس الديني والوطني، وزاولت نشاطاتها في البداية بصورة سرية اتقاءً لما كانوا يتوقعونه من اصطدامات فيما بينهم وبين الأغلبية الساحقة من الشيوخ والشبان الجامدين المتحجرين والمتعصبين، فيثيرون السلطة عليهم فتأمر بالقضاء على الجمعية أو توقف نشاطها وهي لازالت في مهدها.

واستمرت الجمعية تعقد جلساتها في الخفاء لعدة سنوات وتتهيأ الفرصة لنفسها للظهور العلني حتى عام ١٣٥٠هـ (١٩٣٢م) حين أعلنت قانونها الأساسي ثم وزعته مجاناً بعد طبعه، وفتحت لها مركزاً في مدينة تريم، وشرعت تطبق أهدافها شيئاً فشيئاً.

وقد واجهت الجمعية في بداية إعلانها معارضة شديدة من بعض المتعصبين، فأشاعوا حولها الشائعات فاتهموها بأنها تسعى لنشر بعض المذاهب المتطرفة، وتعمل لترويج البدع والضلالات، واستعدوا السلطة عليها لغرض إيقاف نشاطها.

نشاطاتها الثقافية :

ومن النشاطات الثقافية التي ساهمت فيها الجمعية أنها عملت على نشر الوعي الثقافي، وحث الناس على التعليم بمختلف الوسائل الملائمة

(١) من بيان أصدرته جمعية الإخوة والمأونة بتريم عام ١٣٦٨ هـ، ص ٩، ١٠.

والالتحاق بالمدارس الثانوية والجامعية في مصر أو العراق أو سوريا، أو غيرها من الاقطار العربية، بالإضافة إلى إيجاد متعلمين يلبون حاجة البلاد حينذاك ليؤدوا دورهم في نشر الوعي والثقافة .

ورغم ظروف الحرب العالمية الثانية ظلت المدرستان تؤديان دورهما في التعليم حتى نهاية الحرب، وقد تخرج من هذه المدارس عدد من المتعلمين الذين كان لهم الفضل في تثبيت دعائم النهضة التعليمية والثقافية الحديثة في حضرموت، من مواقعهم التي شغلوها، وقد عمل بعضهم في مهنة التدريس لسنين طويلة، والبعض الآخر عملوا في الدوائر الحكومية المختلفة واستطاع بعضهم أن يواصلوا دراساتهم في الخارج، فعادوا بعدها حاملين شهادات جامعية من أمثال: علي عقيل بن يحيى، وكرامة مبارك سليمان . . وغيرهما. ثم توالى البعثات التعليمية إلى الخارج بعد ذلك كل عام.

وفي ٢٤ محرم ١٣٦٠هـ (١٩٤١م) افتتحت معهداً خاصاً لتأهيل الطلبة الذين يراد ترشيحهم للعمل في مهنة التدريس أسمته (معهد المعلمين) لغرض تخريج معلمين للعمل في المدارس الابتدائية.

وفي ٢٥ شعبان ١٣٦١هـ (١٩٤٢م) أسست الجمعية في تريم مجلساً خاصاً للتدريب على الإفتاء الصحيح في الفقه وتأهيلهم ليكونوا قضاة شرعيين صالحين، وكان على رأس هذا المجلس أحد علماء الدين الذي ترشحه الجمعية مهمته تقبل استفسارات المواطنين في مختلف المسائل الدينية والفقهية والشرعية ثم يتولى تقديمها إلى الأعضاء لاختذ آرائهم ومعرفة قدرتهم على الإفتاء الصحيح، ثم يتولى تصحيح أجوبتهم

لعقول الناس حينذاك في مجتمع محافظ شديد التعصب للتقديم يرفض أي جديد، فكانت تنبه الرأي العام من مخاطر بعض العادات والتقاليد القديمة التي تعرقل تقدم المجتمع، وتعمل على نشر الأفكار الجديدة، وتعمم المعلومات المتعلقة ببعض الامراض الاجتماعية المختلفة.

ومن أجل تحقيق اغراضها اتبعت عدداً من الوسائل، مثل:

١ - تقديم دروس خاصة بالأعضاء لتكميل معلوماتهم واعدادهم لسليقهم بواجباتهم .

ب - إنشاء مدرسة ابتدائية للبنين وأخرى للبنات ومحاوله محو الامية .

ج - إرسال وفود وبعثات لنشر الوعي والثقافة بين الناس في المدن والقرى المختلفة، إلى جانب إرسال بعثات طلابية إلى الخارج للدراسة .

ومن أبرز الإنجازات التي حققتها الجمعية في المجال الثقافي مايلي:

١ - في عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٢م) افتتحت الجمعية مدرسة ابتدائية مجانية في تريم، تولى أعضاؤها التعليم فيها، وسعوا إلى نشر التعليم الحديث فيها، وبدأوا في إدخال بعض المواد التطبيقية والفنية والرياضية .

٢ - في عام ١٣٥٩هـ (١٩٣٩م) افتتحت الجمعية مدرسة وسطى في تريم، وضعت لها مناهج دراسية مقتبسة من مناهج مصر والعراق، وجعلت الدراسة فيها أربع سنوات يلتحق فيها من يتخرج من المدرسة الابتدائية السابقة، وقد تولى التدريس في هذه المدرسة أساتذة قديرون. وكانت تلك المدارس ترمي إلى تخريج طلبة قادرين على مواصلة دراستهم

وعرضها عليهم ليعرفوا أخطأهم.

وقد أحدث هذا المجلس أثراً كبيراً في الحياة الثقافية في حضر موت، إذ أتاح لأعضائه فرصة اللقاءات وتبادل الآراء في العديد من المسائل الفقهية والشرعية . . وغيرها.

وقد يجرحهم الحديث إلى تناول بعض القضايا ذات الصلة المباشرة بحياة الناس ومعاناتهم اليومية، وكان بعض أعضائه يقرؤون الكتب ويناقشون بقية الأعضاء في مضامينها، وكان منهم من يكتب الحواشي ويشرح المتون، ومنهم من يؤلف كتباً خاصة بالإفتاء أو في النحو أو في الفلك أو في الشريعة أو اللغة . . أو غيرها.

نادي الشبيبة المتحدة :

كما أسست الجمعية نادياً ثقافياً في تريم أسمته (نادي الشبيبة المتحدة) انتظم في سلكه عدد من أدباء تريم وشبابها، وساهم النادي في نشر الثقافة والأفكار الجديدة.

وكانت الجمعية والنادي يحييان الحفلات التي تقام في المناسبات المختلفة، وفيها يلقي العلماء والأدباء ورجال التاريخ واللغة والكلمات، فيتحدثون في مسائل كثيرة كل واحد منهم في مجال تخصصه، وكانوا يتبادلون المعلومات في مختلف مجالات العلوم، ويلقون المحاضرات والمواعظ والخطب على المواطنين لغرض توعيتهم وتوجيههم.

كما كانت تحيي الاحتفالات الدينية والوطنية والقومية، وحفلات الترحيب بالقادمين إلى تريم من كبار العلماء، كالحفل الذي أقيم في ٩

جمادى الثانية ١٣٥٥هـ (١٩٣٧م) بمناسبة زيارة وفد الجامعة المصرية لمدينة تريم، كما أحيت حفلات توديع لبعض أعضائها كالحفل الذي أقيم في وداع رئيسها محمد بن أحمد الشاطري عند سفره إلى سنغافورا في شهر ذي الحجة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م).

كما أحيت حفلات تأبين لبعض الزعماء العرب ومشاهير العلماء والأدباء . . وما إلى ذلك.

وكانت (جمعية الأخوة والمعونة) قد اشترت مطبعة خاصة بها ساعدتها على إصدار نشرات متعددة في مختلف المجالات الاجتماعية والأدبية . . وغيرها.

كما طبعت فيها بعض المنشورات التي كانت تدعو لمحاربة بعض العادات الاجتماعية الضارة، وقد أتاحت هذه المطبعة الفرصة لبعض المهويين في الشعر أو النثر من نشر بعض أعمالهم الأدبية، وكانت المطبعة بداية من نوع (الرونيو). وفيها كانت تطبع مجلة (الإخاء) التي كانت اللسان المعبر عن حال جمعية الأخوة والمعونة والمتنفس الوحيد للأدباء والكتاب والمثقفين حينذاك في تريم.

وقد نشرت مجلة (الإخاء) في عددها الرابع الصادر في أواخر سنة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) ما يلي:

«ألفت جمعية الأخوة والمعونة لجنة تسعى في كل ما يتمكن تحصيله إعانة لمجاهدي فلسطين.

ووزعت منشوراً أفاضت فيه بشرح الحالات العصيبة التي يلاقيها

أولئك المجاهدون البواسل^(١).

وهذا يعني أن نشاط الجمعية كان يتجاوز حدود حضر موت ليمتد نشاطها إلى خارج اليمن سواء بين أوساط المهاجرين أو الطلاب الدارسين في الخارج أو غيرهم، وكانت على اتصال مباشر ومستمر بالمهاجرين في كل من بلدان جنوب شرق آسيا أو في شرق أفريقيا.. أو غيرها.

وكان مندوبو الجمعية يسافرون إلى تلك البلدان بين الحين والآخر، وفي السفر ثقافة واكتساب معارف وخبرة، وعند عودتهم كانوا يحضرون معهم بعض الصحف والمجلات أو الكتب، وعلى وجه الخصوص، صحف المهاجرين اليمنيين، وكانوا يرسلون تلك الصحف وينشرون فيها بعض هموم ومعاناة الشعب، وبعضهم كان مشتركاً في تلك الصحف أو مراسلاً لها، إذ كانت تصل إليهم بانتظام مع العائدين إلى أرض الوطن بين الحين والآخر، وكان الناس يتبادلون قراءتها بشغف شديد؛ لأن معظمها تناول قضايا الناس في حضر موت وغيرها، وكانت بعضها تعالج القضايا السياسية والاقتصادية وأيضاً الاجتماعية، إلى جانب اهتمامها بنشر بعض الأعمال الإبداعية الأدبية من شعر ونثر لأدباء يمينيين.

نادي الشباب الثقافي بالكللا :

وعندما شعر الناس في حضر موت بأهمية العمل الجماهيري، ولمسوا النتائج الإيجابية لنشاط جمعية الأخوة والمعونة، بادروا في إنشاء العديد من الجمعيات والنوادي الاجتماعية والثقافية، فشرعوا بتأسيس (نادي الشباب الثقافي في مدينة الكللا، الذي أعلن عن افتتاحه رسمياً في ٨

فبراير عام ١٩٥٧م، الموافق ٨ رجب ١٣٧٦هـ). بهدف تحقيق عدد من الأغراض الاجتماعية والثقافية، أهمها: تهيئة الأجواء الملائمة لنشر الثقافة وتنمية الوعي عند الناس^(١). وكانت العضوية في النادي مفتوحة لكل متعلم وصل من العمر خمسة عشر عاماً^(٢). وقد قسمت عضوية النادي إلى ثلاث فئات هي:

- ١ - عضو فخري.
- ٢ - عضو منتسب.
- ٣ - عضو عامل.

وكان الأعضاء العاملون هم العماد الفقري للنادي، أما الأعضاء المنتسبون فكان دورهم ثانوياً يقتصر على تقديم الدعم المادي والمعنوي للنادي، ومعظمهم من رجال الأعمال أو التجار أو بعض المهاجرين الذين يترددون على حضر موت بين الحين والآخر، أما العضوية الفخرية فتمنح لكبار الشخصيات سواء كانوا في السلطة المحلية أم خارجها.

وتيجة لذلك فقد ضم النادي في عضويته لفيماً غريباً من الناس، يتناقضون فكرياً، ويتعارضون طبقياً واجتماعياً. بحيث لم يحصل بينهم أي تجانس فكري أو عقائدي، فظهرت في النادي بعض التيارات السياسية المرتبطة ببعض التنظيمات السياسية السرية أو العلنية، ومن هذه التيارات، التيار الديني المرتبط بجماعة (الإخوان المسلمين)، والتيار القومي المرتبط

(١) دستور نادي الشباب الثقافي (الكللا) المادة ٣، ص ١.

(٢) المرجع السابق، المادة الرابعة.

بحزب البعث العربي الاشتراكي أو حركة القوميين العرب، والتيار المرتبطة برابطة أبناء الجنوب.

وقد دخل النادي في دوامة من الصراع الداخلي الذي، أدى إلى تعثره في استمرار ممارسة نشاطه، ومن ثم إلى توقفه، إذ لم يُعمر أكثر من سنة واحدة فقط، حيث توقف في ٢٢ أبريل ١٩٥٨ م^(١).

نشاطاته الثقافية :

ورغم هذا العمر القصير إلا أنه استطاع أن يسهم بقدر معين في الحياة الثقافية في حضرموت، فقد تمكن من إقامة عدد من المحاضرات والندوات الثقافية، وتنظيم عدد من اللقاءات الأدبية، كما استطاع أن ينسج نوعاً من العلاقة مع بعض النوادي والجمعيات المناظرة له في بعض مناطق حضرموت والمهجر، وسعى إلى إرسال بعض الطلاب إلى بعض الاقطار العربية من أجل مواصلة دراساتهم بعد التنسيق مع حكوماتها.

ومن الندوات التي أقامها النادي - على سبيل المثال لا الحصر - ندوة حول حياة الصيادين، أقيمت في مقر النادي بتاريخ ٢٧ فبراير ١٩٥٨ م. وغيرها من الندوات^(٢).

كما أسهم النادي في إنعاش الحركة المسرحية والفنية، من خلال تقديمه لبعض المسرحيات وتنظيمه لبعض العروض الفنية، التي شارك في تنظيمها أعضاء النادي وبعض المواطنين.

(١) محمد جبريل، مدينة المهاجرين ص ٤٦، سلسلة كتب قومية، العدد (١٥٥)، القاهرة.

(٢) د. صالح باصرة، النادي الثقافي في المكلا، مجلة الحكمة العدد (١٤٠) يوليو ١٩٨٧ م.

وسعى النادي كذلك إلى إقامة مكتبة داخلية تضم عدداً من الكتب والمجلات والدوريات المتنوعة، مما كان لها عظيم الأثر في تسهيل مهمة القراءة للأعضاء الذين كانوا يجدون صعوبة في الحصول على الكتاب أو المجلة.

وكان النادي عند تأسيسه يحظى بدعم ومساندة السلطة القعيطية. فقد تمكنت السلطة من فرض بعض عناصرها في قيادة النادي لكي تتمكن من توجيه نشاطه وفقاً لمشيئتها، غير أنهم اصطدموا بعناصر أخرى من الشباب الراضين بتدخل السلطة في سياسة النادي مما أدى إلى توقيف نشاطه بأمر من السلطة، بعد أن أسهم مع غيره من النوادي والجمعيات في تأهيل المعلمين تأهيلاً علمياً وسلوكياً ليقوموا بمهام التدريس فيها خير قيام. وعندئذٍ ظهرت الحاجة لبناء المزيد من المدارس التي تلبى حاجة المجتمع المتزايدة دوماً، فضغطت الناس على الحكومات المحلية لإرسال بعض الطلبة الذين كانوا قد تخرجوا من بعض المدارس المتوسطة إلى كلية المعلمين في مدينة (بخت الرضا) في السودان، ليتأهلوا ويتدربوا على أصول التدريس الحديث، ويكتسبوا خبرات ومهارات فنية في طرائق التدريس. وغيرها من الشؤون التربوية والتعليمية، ليعودوا بعدها مؤهلين ليشغلوا مناصبهم في عملية التدريس والتوجيه التربوي والإدارة في المدارس المختلفة.

وتتابعت البعثات بعد ذلك إلى مدارس أخرى في السودان وبريطانيا، إلى جانب الطلبة الذين كانوا يوفدون للدراسة في كلية عدن بالشيخ

عثمان.

الصحف على سبيل المثال:

- * السبل : أصدرها محمد عقيل بن يحيى في المسيلة، عام ١٩١١م.
 - * عكاظ : أصدرها عبدالله بن يحيى في تريم عام، ١٩٢٩م.
 - * الحلبة : أصدرها علي عقيل وموسى الكاظم في المسيلة، عام ١٩٤٥م.
 - * زهرة الشباب : أصدرها حسين بن مسلم السقاف في سيون، عام ١٩٤٤م.
 - * التهذيب : أصدرها محمد حسن بارجاء^(١) في سيون، عام ١٩٣٠م.
 - * المنبر : أصدرها محفوظ بن عبده في المكلا، عام ١٩٤٣م.
 - * الأخاء : أصدرها أحمد زين بلفقيه في تريم، عام ١٩٤٥م.
- ثم صدرت عدة صحف أخرى مطبوعة مثل:
- * الطليعة : أصدرها أحمد عوض باوزير في المكلا، عام ١٩٥٩م.
 - * الرائد : أصدرها حسين محمد البار في المكلا، عام ١٩٦٠م.

وإلى جانب إصدار الصحف المحطوبة والمطبوعة ومراسلة الصحف الأخرى في عدن أو غيرها، اهتم الناس بتأليف الكتب ونظم الشعر، فظهرت بعض الكتب التاريخية والأدبية والفقهية واللغوية... وغيرها.

(١) الحقيقة أصدرها وحررها علي أحمد باكثير، وجعل الشيخ محمد حسن بارجاء واجهة لها، وذلك لكبر سنه ومكانته الاجتماعية.

وأرسل أيضاً بعض الطلبة إلى بعض الأنظار العربية، أو إلى بريطانيا للدراسة العليا، وعادوا بعدها حاملين شهادات جامعية لياهموا في الحياة التعليمية والثقافية، وشغل بعضهم مناصب رفيعة في الدولة.

وكان اخريجون الأوائل قد ساهموا مع غيرهم من المتعلمين في تأسيس بعض النوادي الاجتماعية والمراكز الثقافية، واهتموا بقراءة الكتب وأنشأوا المكتبات الخاصة، وراسلوا الصحف وكتبوا فيها، وبرز منهم بعض الأدباء من الشعراء والكتاب. وكثر الاهتمام بقراءة كتب الأدب العربي القديم والحديث، فاحتوت مكتبات بعضهم على مؤلفات الجرجاني والجاحظ ودواوين الشعراء، كالمتنبي والمعري والبحري وأبي تمام وابن الرومي وشوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم. كما اقتنوا كتب الفالي والأصفهاني وابن قتيبة وطه حسين والعقاد والمازني وزكي مبارك وغيرهم. كما اهتموا بقراءة شعر الرصافي وإيليا أبي ماضي وعلي محمود طه وغيرهم.

وكانت المسابقات الأدبية تقام بين الحين والآخر، وتقدم فيها الجوائز للفائزين، وفي هذه المسابقات تلقى القاصد والقطع الشثيرة الأدبية، كما كانوا يقومون بتمثيل بعض المسرحيات الهادفة.

الصحف في حضر موت :

إن ذلك من غير شك قد خلق المقدمات الضرورية للتنهضة الثقافية الحديثة في حضر موت، التي ظهرت ثمارها في صدور عدد من الصحف المخطوطة باليد التي كان المثقفون يتداولونها فيما بينهم، ومن تلك

المؤلفات والدواوين الشعرية :

وكثر الكتب التي تتناول شؤون حضرموت في المجالات التاريخية والسياسية والأدبية والثقافية وغيرها. ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الكتب التالية :

- * رحلة إلى الثغرين لمحمد بن هاشم.
- * تاريخ الشعراء الحضرميين: لعبدالله بن محمد السقاف.
- * الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي. لسعيد عوض باوزير.
- * معالم تاريخ الجزيرة العربية: لسعيد عوض باوزير.
- * نسيم حاج: لعبدالرحمن بن عبدالله السقاف.
- * بضائع التابوت: لعبدالرحمن بن عبدالله السقاف.
- * عقود الأماس: لعلوي بن طاهر الحداد.
- * جنى الشماريخ: لعلوي بن طاهر الحداد.
- * صفحات من التاريخ الحضرمي: لسعيد عوض باوزير.
- * أدوار التاريخ الحضرمي: لمحمد بن أحمد الشاطري.
- إلى جانب بعض الكتب الأخرى في العلوم المختلفة.
- وصدر أيضاً عدد من الدواوين الشعرية لبعض شعراء حضرموت، نذكر على سبيل المثال:
- * ديوان محمد بن أحمد الشاطري.

* ديوان عبدالرحمن بن عبدالله السقاف.

* ديوان عبدالله بن علوي الحداد، المعروف باسم (الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم).

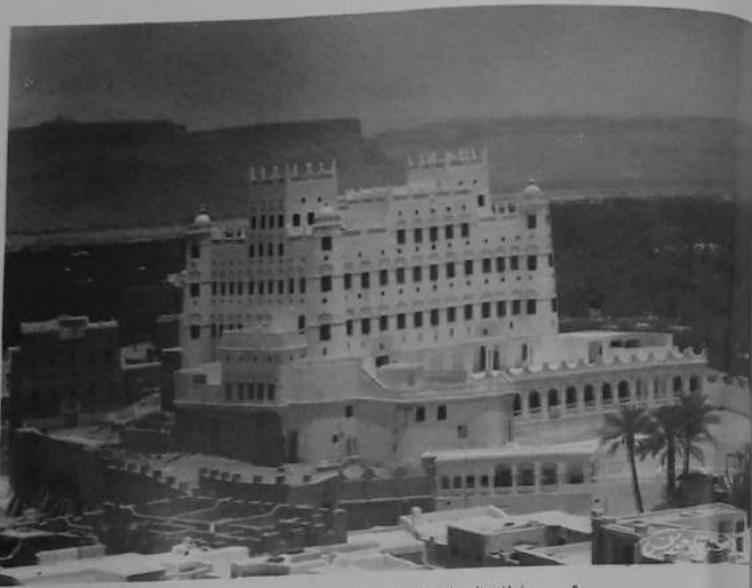
* نسمات الربيع: لصالح بن علي الحامد.

* ليالي المصيف: لصالح بن علي الحامد.

وغيرها من الدواوين الأخرى.

من كل ما سبق يتضح جلياً أثر المعاهد الدينية في حضرموت، وما اتصل بها من جمعيات ومؤسسات خيرية سعت لنشر العلم والثقافة، التي ظهرت نتائجها في الجيل الجديد الذي يتحمل على عاتقه اليوم مسؤولية إعادة صياغة البناء الثقافي وتطويره .

الملحق المصور



قصر سلطان الدولة الكثيرة الحضرمية بمدينة سيئون



The port of Mukalla, a major centre in the 19th century

مدخل مدينة المكلا عاصمة الدولة القمبية الحضرية من البحر



منظر من الجو لمدينة شبام التاريخية الشهيرة



قرية الهجرين بوادي دوغن الشهير بإنتاج العسل



فن العمارة الطينية الصامدة عبر العصور في المدن الحضرمية



صورة قديمة تجمع وسائل النقل الثلاث في حضر موت الجممل والسيارة والطائرة



صورة نادرة لقصر سلطان الدولة القعيطية الحضرمية بالملكلا يعود تاريخها لما يزيد عن نصف قرن



صورة نادرة لمدينة شبام التاريخية يعود تاريخها لما يقرب من مائة عام



ترجم حضر موت مدينة العلم والعلماء

المحتويات

- ٥ ★ المقدمة
- ١٣ ★ مصادر التاريخ الحضرمي
بقلم الأستاذ : أحمد عوض باوزير
- ١٩ ★ حضر موت
بقلم السيد العلامة : محمد بن عقيل
- ٣٧ ★ حضر موت .. بلاد الأحقاف
بقلم الأستاذ : صلاح البكري
- ٦٣ ★ حضر موت .. الناحية الاقتصادية
بقلم الأستاذ : علي أحمد باكثير
- ٨٥ ★ الثروة الاقتصادية في حضر موت
بقلم الأستاذ : أحمد طه السنوسي
- ٩٣ ★ الاسماك في الشواطئ الحضرمية
بقلم الأستاذ : علي عبود العلوي
- ١١١ ★ الشعر العربي في حضر موت
بقلم الأستاذ : أحمد طه السنوسي



بيوت مدينة المكلا الحجرية الصامدة في وجه البحر منذ قرنين من الزمان

- ١١٩ ★ الأدب الحضرمي وعلاقته بمصر
بقلم الأستاذ : طه بن أبي بكر السقاف
- ١٢٧ ★ الادب المصري في الجنوب العربي بشبه جزيرة العرب
بقلم الدكتور : د . ب . سارجنت
- ١٣٣ ★ حضرموت وعهدا بالنحلة الإباصية
بقلم الأستاذ : عبدالله حسن بلفقيه
- ١٤٣ ★ رأي مفتي حضرموت
السيد عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف
فيما دار بين عزام باشا والسيد محمد بهجت الأثري
- ١٥٧ ★ المعاهد الدينية في حضرموت وأثرها في الحياة الثقافية
بقلم الأستاذ : علوي عبدالله طاهر
- ١٩١ ★ المحتويات

